ألوان

أدهم عادل



SUMER

سطور للنشر و التوزيع

ألوان

أدهم عادل

ألوان

أدهم عادل

COLORS

ADHAM ADEL

الطبعة الأولى: 2018

إصدار دار سطور للنشر والتوزيع
العراق ـ بغداد ـ شارع المتنبي ـ مدخل جديد حسن باشا
ص. ب 74090
الرمز البريدي 12114
07700492576 - 07711002790 :هاتف email: bal - alame@yahoo. com

First Published by Dar Sotour For Publishing and Distribution
Baghdad - Iraq - Al Mutnabi street - Jadeed Hasan Basha Entry

ISBN: 978 - 9922 - 608 - 14 - 3

قصص قصيرة

ألوان

أدهم عادل

(رفضني الجميع ورفضت كل شيء، وكلما أحببت أحدًا، أخذه مني الموت أو الجنون.)

يانيس ريتسوس

(ليس شرطًا، أن تطفئ الآخرين لتسطع أنت.)

بوب مارلي

(حاولت ان أكون طبيعيًا ذات مرة، لقد كانت أسوأ ثلاث دقائق في حياتي.)

جاك نيكلسون

(بدأت الحضارة لأول مرة عندما قام رجل غاضب بإلقاء كلمة بدلًا من حجر.)

سيغموند فرويد

(عندما ذهبتُ إلى المدرسة سألوني: "ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر؟" فأجبت: أريد أن أصبح سعيدًا. فقالوا: "أنت لم تفهم السؤال." فأخبرتهم، أنهم لم يفهموا الحياة بعد.)

جون لينون

الإهداء

إلى كل شخص يشبهني على هذه الأرض.
تعدى الثلاثين، وما زال يؤمن بأن أفلام الرعب حقيقة!

ألوان

وُلد ضريرًا. لم يبلغ عامه الأول بعد، حينما صدم الطبيب والدته:

- آسف يا سيدتي، ولدك أعمى.

قال لأمه بعد ذلك بسنوات:

- أمي، ما هي الألوان؟

ردت الأم بارتباك:

- الألوان هي الألوان يا عزيزي!

أجاب بعد تفكيرٍ قصير:

- أعرف ولكن كيف تكون؟

نظرت إليه بانكسارٍ كبير لا يراه وقالت:

- الألوان هي الأشياء، فمثلًا اللون الأحمر هو لون القبعة، والأصفر لون القميص، والأزرق لون البنطال، والأبيض لون الحذاء، والأخضر لون الجاكيت، والأسود لون العباءة.

سكت لحظة ثم قال:

- ولكن كيف تبدو هذه الأشياء أصلًا؟

بكت بدمعةٍ صامتة ولفها السكون كضفيرة، فلم تكن تعرف الجواب أبدًا..

طرقت باب رجل قالوا عنه أنه يعلم الأطفال في (الكتاتيب)، ظهر الرجل قصيرًا، عظيم الهيئة، نال الشيب من جوانبه ما يناله النهر من الأرض، فوق أنفه نظارة صغيرة وبين يديه كتاب كبير.

- ما الأمر يا سيدتي؟

قالها بصوتٍ خفيض محترم..

ردت بخجل وولدها خلفها:

- هل لك أن تضع حدًّا لحيرة ابني المسكين يا سيدي؟

- وما هي حيرته؟

قالها مبتسمًا.

جلبت ابنها من ورائها وربتت على كتفه أن تكلم..

- ما هي الألوان؟

سأل وهو ينظر إلى بابٍ مجاور!

أجاب الرجل بعد تفكيرٍ طويل:

- الألوان هي طبيعة الوجود يا ولدي، فالأحمر لون الدم، والأصفر لون الشمس، والأزرق لون السماء، والأبيض لون القمر، والأخضر لون الأشجار، والأسود لون الليل.

جر أمه من كم ثوبها وهمس:

- خذيني من هنا، فأنا لم أفهم شيئًا.



قالت لها جارتها، أن حكيمًا من شيوخ السماء قد سكن في معبد القرية القديم وأنه يعرف ما تحوي بواطن الأرض وسطوحها. حملت ضريرها الصغير فوق رأسها وطرقت بابه مع أول خيوط الفجر..

كان نحيلًا كقصبة، ذو شعر أبيض طويل بجدائل، غائر العينين، حاد الأنف، مسود الفم، له وشم لا يُميز على صدره، يستند على عكاز ويرتدي من الحُلي أكثر مما ترتديه العروس في ليلتها.

ألقت عليه التحية فرد بإيماءة من رأسه، وبعد أن بكت قالت:

- أيها الشيخ العظيم، هل لك أن تضع نهاية لحيرة ابني المسكين؟

أجاب ببرود:

- فليقل.

قال الضرير بعد أن هبط من رأس أمه إلى الأرض:

- ما هي الألوان؟!

سكت الشيخ لبرهة ثم أجاب:

- الألوان هي الأصوات، فالأحمر صوت الصراخ، والأصفر صوت الرياح، والأزرق صوت المطر، والأبيض صوت الأطفال، والأخضر صوت اللهاث، والأسود صوت الموت! هل فهمت الآن؟

تعلق الضرير بأمه وقال:

- خذيني من هنا، فهذا الرجل مخيف.

وضعته في عربة وانطلقت به إلى ساحر يسكن قلعة بعيدة قيل عنه أنه يعرف دهاليز الموت ويجيب على حيرة الأرواح المعذبة في البرازخ، ولكن بعد

أن يأخذ روح أحدهم ثمنًا لذلك. كان قوامه يتسم بالانحناء، مغطى كله بثوبٍ كبير فضفاض ذي قلنسوة لا يظهر منه إلا يد واحدة بأظافر طويلة، قالت وهي ترتجف من الخوف:

- أيها الساحر العظيم، جئتك من أطراف البلاد كي تضع حدًّا لحيرة ولدي الضرير.

- وهل تعرفين الثمن؟

سألها بصوتٍ وخيم من داخل القلنسوة.

- نعم!

أجابت وهي تحتضن ضريرها لآخر مرة، قبلته، بكت فوق عينه، أجلسته على الأرض، واتجهت إلى الساحر، فتح ثوبه، فدخلت فيه، لف الرداء حولها، صرخت للحظات وزُهقت روحها بعد ذلك..

نظر إلى الولد الجالس، فقال بصوتٍ أجش غاضب:

- اسأل.

رد الطفل على مصدر الصوت:

- ما هي الألوان؟

احتار الساحر في الإجابة وعندما لم يجد أي معرفة لهذا السؤال، أومأ لنسرٍ عظيم على شجرةٍ قريبة بإحدى أصابعه فخطف الطفل سريعًا وحلق به ثم رماه في أحد حقول قريته..

بقيَ وحيدًا في بيته سنوات طويلة بعدها، منتظرًا أمه أن تعود أو يحظى بإجابة، ولكن لا جواب لحيرة ولا عودة لغائب.. كان جالسًا قرب (فزاعة) الحقل عندما قالت له فتاة لا يعرفها:

- لِمَ تجلس قرب (فزاعة)؟!

لم يُفزع لصوتها وأجاب بملل:

- لأنها تشبهني.

- وكيف ذلك؟

- لأنها لا تتكلم وأنا لا أرى، نحن الاثنان مجرد دميتين على هذه الأرض.

- ولِمَ تريد أن ترى؟!

أيقنت بداخلها أنه سؤال سخيف فسرحت بعيدًا..

- لأنني أريد أن أعرف ما هي الألوان.

- وهل هذا الشيء مهم لهذه الدرجة؟

- بالطبع، فقد فقدت أمي بسببه.

قالها وهم بالرحيل، سار خطوتين فصاحت به:

- توقف، سأجعلك تعرف ما هي الألوان.

وقف بيأسٍ وقال هازئًا:

- حقًّا؟

وقفت أمامه، قربت وجهها من وجهه، هبت نسمة فاترة، مسكت خصلة من شعرها ورمتها على أنفه، فتسرب عطر شعرها إلى صدره، تسارع نبض قلبه، وضعت يدها على وجهه، لثمت شفتيه بحنوٍّ بالغ وقالت:

- ماذا تشعر؟!

أجاب بقلبٍ منتفض ورئة لاهثة:

- شيء ما يتحرك في صدري.

- هذا هو اللون الأحمر.

دفعته بقوة حتى كاد أن يقع، صرخت بوجهه:

- أيها الضرير البائس.

ثم قالت بصوتٍ حاد كشفرة:

- والآن ماذا تشعر؟!

- أشعر أنكِ حقيرة.

قالها بغضب.

فردت بثقة:

- هذا هو اللون الأصفر.

جلست قربه ووضعت راحتها على رأسه، مسدت شعره وقالت بحنان:

- استمع إلى زقزقة ذلك العصفور البعيد.

بعد أن رفع رأسه وأرهف سمعه جيدًا، أكملت:

- والآن ماذا تشعر؟

- السكينة.

رد بهدوء.

قالت بفرح:

- وهذا هو اللون الأزرق.

نظرت إلى جلسته تلك فثارت عاطفة بداخلها لحاله فبكت صادقة ونزلت دمعة حارة بللت يديه، شعر بها، رفع يده إلى خدها تحسس دمعها فقال:

- أتبكين لحالي؟.. الحق يا سيدتي لا أعرف ما هو شعوري الآن؟!

ضحكت فخالطت دمعها بضحكها وقالت:

- هذا هو اللون الأبيض.

تأملت الغروب ثم همست باسمة في أذنه بمكر:

- اللون الأخضر ستعرفه عندما تصبح أبًا.

رحلت بخطى واثقة ثم توقفت بعد مسافة كمن تذكر شيئًا، التفتت إليه وصرخت من هناك:

- هل تتذكر شعورك عندما فقدت أمك لأول مرة؟

- نعم، أتذكره بقوة.

رد عليها صارخًا.

- ذلك هو اللون الأسود.

قالت ذلك واختفت في الظلام.

(2018/6/5)

الغول

كـان يُـدعى الغـول، رجـل قبـيح الوجـه، بعينـين غـائرتين وأنـف كبـير أفطـس، وجلـد مشـوه محترق، أطـراف عليـا قصـيرة تنتهـي بسـلاميات طويلـة مرعبة، وأطراف سفلى مقوسة كهلالين ويعلو ظهره احديداب ضخم بشع، أشـاعت الأمهـات عليـه أن مـن لا ينـام بـاكرًا مـن الأطفـال فـإن الغـول سيختطفه ويدفنه في تلك الحدبة، حتى أصبح ظهره الكبير مقبرة الأطفال الساهرين، عندما ولد قتل أمه لضخامته، قال أبوه لخالته التي كانت تنتحب لأجل أختها:

- ارموا هذا الوحش في أي ملجأ فإنه شؤم.

تشمئز منه الأنوف والأرواح، وتهرب منه النساء الحوامل ويمقته الجميع لقتله أمه في الولادة، ولهذا كان يكبر وحيدًا في سرداب الملجأ القديم، يُرمى له الطعام من القضبان كحيوانات الحدائق.. عندما أصبح في العاشرة خرج لأول مرة إلى الشارع، كان لا يعرف الكلام ولا يحسن السير ولم يرَ أنسيًّا طيلة حياته القصيرة. رأى مجموعة من الأطفال يلعبون الكرة في المتنزه فداهمه إحساس الطفولة المتأخر وابتسم بأنيابٍ نخرها الخبز القديم وركض باتجاههم

يصرخ كوحشٍ يريد اللعب، في البدء هرع الأطفال خوفًا منه ولكنهم عندما رأوه يبكي وحيدًا من الحزن والخوف، وضعوا حبلًا في رقبته وجروه كالثور في الشوارع وسط ضحك الآباء وتشجيع الأمهات.. عندما تعبوا من اللعب مساءً، رموه قرب ساقية وذهبوا للنوم.. كان قد جلس على الأرض يلعق جراحاته الكثيرة بلسانه، حين رأى إوزة هبطت بالقرب منه لتشرب الماء، فزعا في البدء من بعضهما البعض، تجمدا لحظات ثابتين، صامتين، متبادلين نظرات من كسَرتهم الحياة ثم بحركةٍ شجاعة بدأت الإوزة بشرب الماء.. أخرج كسرة مالحة كانت كل ما يملك، نثر عليها الماء فلانت ثم وضعها بالقرب من منقارها، وما أن بدأت تنقر الفتات حتى ضحك بمرحٍ طفولي وبدأ بالمضغ معها..

عاش أيامه التالية كالآتي، في النهار عربة يجرها الأطفال وفي الليل عاشق لإوزة برية بيضاء اللون، يلهو معها، يضحك معها، يأكل معها، يتكلم إليها، يقلد صوتها، وفي إحدى المرات حاول أن يطير معها، ولكنه ما أن قفز من ربوةٍ عالية حتى سقط جسمه الثقيل على الأرض وتهشمت جميع أضلاعه، كان الأطفال يجرونه في شارع المدينة الرئيسي، حين رأى إوزته وهي تصرخ بخوفٍ بين يدي أحد الجزارين، نظر إليها فأجابته بعينين مذعورتين، مرتجفة وجلة من مصيرها المجهول ونادته بصوتٍ ذليل حرك في داخله عواطف يعرفها لأول مرة، وحينما رأى الجزار يحمل سكينًا صقيلًا، يريد أن يهوي بها على رأسها حتى ثار كالبركان وصرخ صرخة مرعبة هرب على إثرها الأطفال وركض إلى الجزار بقوةٍ وغضب، فصدمه كقطارٍ ليقع على الرصيف وتُكسر

عنقه. خطف حبيبته وهرب بها إلى الساقية.. بعد أن مسح على رأسها بيدٍ راجفة، أطلقها قرب الماء، ونظر إليها بعطفٍ وهي تهرب بعيدًا بحياتها.. التفت ليرى نفسه مطوقًا بحشدٍ كبير من الرجال الغاضبين المدججين بالأسلحة، جروه من عنقه بذات الحبل الذي صنعه الأطفال، وفي ساحة وسط المدينة، صلبوه على عمود رخام ثم جمعوا حوله غابة من الحطب وانتظروا ساعة الظهيرة كي يحرقوه انتقامًا لجزار مدينتهم.. دقت الساعة، وأشعلت النيران وسط الهتافات الغاضبة اللاعنة، وما هي إلا لحظات وغطى الشمس سرب لا نهاية له ولا بداية من الإوز البري الأبيض اللون، تجمع فوق النار، هبط على الغول، حرره من حباله، حمله وحلق به إلى الأفق البعيد وسط ذهول الجميع....

AM 12:00

رجل السماء

برقت السماء، هبط الضوء مسرعًا بصورةٍ عمودية يدوي مرعدًا كوحشٍ سقط من الجحيم. ضرب شجرة على قمة جبل فشقها نصفين، وما أن همدت النار، وهدأت الشجرة بأغصانها المتغضنة، وساد في الجو ذلك الصمت الرهيب الذي يتلو الكوارث، حتى خرج من منتصف الشجرة رأس كبير قمحي اللون، غاضب الملامح، ذو لحية بيضاء مسترسلة إلى الأسفل وعينين واسعتين بمحجرين مكتحلين. نزع الشجرة عنه كمن ينزع (روبًا) بكمين طويلين ثم وثب بعيدًا عن الجذر، ليظهر تحت القمر قوام نحيل لا يرتدي شيئًا.

نظر حوله فوجد فروًا أسودًا لخروف نافق كبير، لفه على جسده كرداء وهبط الجبل مسرعًا. وصل صباحًا إلى قرية نائية، أكواخها بُنيت على الأشجار وساكنيها يرتدون العظام. وقف على ربوةٍ صغيرة وهتف:

- أيها الناس، جئتكم كي أنقذكم مما أنتم فيه من الضلال والجهل والظلم والجشع.

- لم يعد في هذه القرية شخص يؤمن بالغيب.

قالها صوت من خلفه.

التفت إلى مصدر الصوت فوجد شيخًا كسيحًا يحمله أربعة أطفال على سريرٍ من الخشب، أكمل الشيخ بصوتٍ بحه الزمن:

- ولم ذلك؟!

رد الرجل وقد اتسعت عيناه.

- لأنهم فقدوا أطفالهم بسبب المجاعة، أترى تلك العظام التي يرتدونها كأثواب، هذه أطفالهم الجياع، عندما بدأت المجاعة قال لهم عراف يدعي معرفة السماء، بأن يضحوا بالأمهات كي ينقذوا الأطفال، ذبحوا الأمهات جميعهن في ليلةٍ ظلماء خالية من البدر وفي الصباح مات الأطفال جميعًا، هجروا أعمالهم، حرقوا بيوتهم، خلعوا ملابسهم، ارتدوا عظام أطفالهم الموتى وسكنوا الأشجار وحيدين مع القردة والحشرات.

نظر إليهم بحزن وترك الكسيح وغادر بهمةٍ عالية لم تهزم.. وصل إلى قريةٍ أخرى كانت تتوسط الغابة كواحة تتوسط الصحراء، خالية من البيوت تمامًا، لا يوجد بها سوى عشرة رجال راكعين أسفل شجرة سنديان ضخمة..

أصدرت الأوراق خشخشة أقدامه حين وصل، لم يلتفتوا إليه، نظر إليهم بحدة، تخلص من لهاثه وقال:

- جئت لإنقاذكم.

- ممَ؟

تساءل صوت أجش من فوق غصنٍ كثيف الأوراق لم يميز له شكلًا.

- من جهلكم.

أجاب بارتباكٍ ملحوظ.

- وما هو جهلنا؟

زاد الصوت الذي خلف الأغصان حدة، نظر الرجل إلى الراكعين مخاطبًا إياهم بصوتٍ ارتفع بوضوحٍ وثقة:

- ما لكم تقدسون هذه الأغصان المورقة؟! إنها مجرد شجرة.

وقبل أن يتبين أي رد فعل عليهم، أجابه الصوت مرة أخرى:

- أنا أعطيهم الظلال، فماذا تعطيهم أنت؟

- أنا أعطيهم النجاة.

- وأين كانت هذه النجاة عندما احترقت جميع حقولنا فلم يبقَ لنا ما نقتات به سوى التراب الأسود.

قال هذه الجملة رجل منهم واستقام من ركوعه، فظهر بوجهٍ محترق تمامًا..

أطرق ثم أكمل:

- ارحل أيها المرسل، فكما ترى لم تترك النار فينا رجلًا ذا وجهٍ سليم كي يتبعك!

تركهم راكعين، ورحل بروحٍ قلت عزيمتها عن تلك التي هبط بها الجبل واتخذ طريقًا وعرًا طويلًا ملتويًا ليصل إلى تلٍّ صغير من الحُلي والأساور والتيجان والخواتم الذهبية المرصعة بالزمرد..

عبره بنظرة استفهامٍ كبيرة ودخل على قبيلةٍ كاملة من العراة.. أجسادهم تعظمت من الجوع وأفواههم تفطرت من العطش.

تجمعوا حوله كموتى يسيرون على قدمين ثم اصطفوا قسمين كي يفتحوا طريقًا يؤدي إلى خيمةٍ كبيرة يجلس في مقدمتها رجل بشع بلا رقبة، يرتدي من الجواهر ما لا يستطيع الثور حمله، أصلع الرأس، يرتدي قرطًا فضيًّا ضخمًا في أنفه ويقف خلفه جنود يرتدون الأقنعة..

وقف أمامهم وقبل أن يفتح فمه، خاطبه أحد الجنود قائلًا:

- أنت في حضرة رسول السماء، تبرع بكل شيءٍ تملكه كي يبارك لك جسدك الفاني.

تنفس بقوة وتحضر كمن يريد أن يقول شيئًا ولكن الرجل البشع ذو القرط، صرخ مشيرًا بسبابته نحوه:

- جردوه من كل شيء.

قفز الجنود عليه بخناجرهم ليفترسوه، ولكنه وثب بخطى واسعة هاربًا، اختلط بالأقوام العارية، دفعهم خلفه كسد ولاذ بالفرار.. أتعبه المسير يومين كاملين فجلس على الأرض ساندًا ظهره لصخرةٍ ملساء صقيلة الملمس.. قال له شخص خرج رأسه من حفرة:

- هل أنت ذاهب إلى قريتي؟!

- ربما، فأنا سأجول الأرض بما عليها.

رد المرسل بثباتٍ يليق بمن قدم من السماء.

- إذًا، هل لك أن تأخذ هذه القلادة لزوجتي؟ لقد وعدتها أن أرجع بأقرب وقت، ولكنني كما ترى لا أستطيع الوفاء بوعدي بعد الآن.

رمى له القلادة بفمه كأفعى نفثت سمها ورجع إلى باطن الأرض ليموت مجددًا.. كانت قلادة صغيرة من الجلد، بتميمة لعظمٍ صغير من الماعز تحفظ الأرواح من الموت!

وصل إلى قريةٍ كبيرة جدًّا، في وسطها نار لا تخمد وحولها تجمع عدد مهول من النساء، بوجوهٍ دامية الأعين، ورؤوس حليقة الجدائل، وأطراف منزوعة الأظافر، وسيقان هجرت الحجول، يدرن حول نار عظيمة بلا ملل كالطواحين، يرددن كلمات التقديس والتبجيل والرحمة والتوسل.

وقف خلفهن، فصرخت طفلة لم يعرف لها مكان:

- لقد عادوا.

استدارت النساء دفعة واحدة وصمت الكون بأكمله كأنه يحتضر.. اقتربت فتاة طويلة سمراء كالشمس، ذات عينين واسعتين، وشفتين رقيقتين وأنف رقيق صغير. بقايا شعر تقول: "كان هنا شلالًا أسودًا لامعًا ينزل على كتفين عريضين، في أسفلهما يلتقي قمران غطى جلد الماعز الذي ترتديه بريقهما ولكنه لم يستطع أن يخفيهما تمامًا. تقود بيمينها طفلة في العاشرة من عمرها.. قالت له بصوتٍ مرتبك:

- هل عادوا معك؟!

- ومن هم؟!

أجابها وهو ينظر إلى الفتاة.

- أزواجنا الذين رحلوا لنصرة السماء.

أجابته وقد اختنق صوتها.

- عذرًا ولكنني لم أفهم، أنا مرسل من...

وقبل أن يكمل، قاطعته بصوتٍ متوسل:

- قبل فترة طويلة، جاءنا رجل يقول أنه قد هبط من السماء، وقد أتى كي نقف معه في محاربة الأعداء الظالمين، فأخذ جميع رجالنا ووعدنا بأن يعودوا مؤزرين بالنصر بعد عدة شهور، كان هذا قبل عشر سنوات.

نظر إلى طفلتها الصغيرة فرأى في عنقها قلادة مشابهة تمامًا للتي معه، خفق قلبه وأخرج القلادة من صدره بيدٍ ترتجف فهرعت إليه الفتاة الطويلة وفي يدها ابنتها وخطفتها من يده صارخة:

- هذه لزوجي، لقد وعدني أنه سيرجع قريبًا، إنه حي، ألم أقل لك أن أباك حي؟! شكرًا للسماء.

احتضنت ابنتها الصغيرة وفاضت الدموع من المقل، لحظات ثم التفتت إليه باسمة:

- أين هو الآن؟ أرجوك قل لي بسرعة، هل هو في طريق العودة؟!

نظر إلى الطفلة الصغيرة وهي تبتسم، فقال بانكسار:

- نعم إنهم في الطريق إليكن.

ارتجت القرية بالزغاريد، وتعالت الأصوات بالتهليل وبكين الزوجات أمام النار، ورقص الأطفال خلفهن، أما هو فقد أخفى دمعة ثقيلة بيده وهم بالرحيل، إذ لم يستطع تحمل فكرة أن يكون الرسول كاذبًا!..

رجع بقدمين ثقيلتين من الذنب، نظر إلى السماء في الظهيرة، أراد أن يقول شيئًا، كانت الشمس لاهبة، فلم يستطع الصمود طويلًا، أنزل رأسه

وأكمل المسير.. وفي طريقه رأى طفلًا خائفًا يركض إليه مسرعًا، فاحتضنه وهو يبكي صارخًا:

- أنقذني يا سيدي، أرجوك.

ظهر خلفه أربعة فرسان بسيوفٍ طويلة، قال كبيرهم:

- أعطني هذا الجاحد سليل الكافرين.

- ولكن ماذا فعل؟

قالها وضم الطفل خلفه:

- لقد تنكر لكبير قومنا وهو مرسل من قبل السماء.

- كلا هذا خطأ، فأنا الرسول الذي...

وقبل أن يكمل قفز الطفل من خلفه كي يهرب فوثب عليه أحد الفرسان بسيفه ليذبحه من العنق ويتركه صريعًا بين يديه، رجع إلى قمة جبله بلحيةٍ ابتلت بالدمع والحزن وقلبٍ تمزق لشدة الندم والفشل، وروحٍ تكسرت تحت حطام اليأس والشك..

مسح على الشجرة، أعاد تكوين أوراقها، وحد نصفيها، أرجع الفرو الأسود إلى الأرض، تعرى تمامًا، رفع وجهه إلى السماء وفتح ذراعيه كي يعود به البرق من جديد...

(2018/6/12)

الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل.

شجرة التين

عندما كنت في السادسة، عشقت شجرة التين الوارفة الظلال الساكنة في الباحة الأمامية للمنزل. كنت أحتضنها كل صباح، أتسلقها، أمضغ أوراقها، أكتب على أغصانها، أستلقي تحتها، وأحيانًا أقطع أعوادها كي أنش بها أسناني الصفراء. بعد أن تزوج أخي الكبير ورحل. قلت لأمي تلك الليلة:

- أريد أن أتزوج يا أمي.

جلجلت أمي بالضحك وقالت:

- ومن هي سعيدة الحظ؟!

انتفضت واقفًا وأجبت:

- تلك الشجرة الواقفة في الحديقة.

ابتسمت ورددت بسذاجة:

- لا يمكن يا صغيري، أن نتزوج الأشجار فالأشجار بلا نهود!

أخذت سكينًا صغيرًا من المطبخ ورسمت على أغصان حبيبتي دوائر أشبه بالنهود. في تلك الأيام كانت أمي تطبع الأرغفة على وجه (تنور

الطين) ثم تقلعها بالأظافر وتبيعها لأفواه المسافرين. وبعد أن اقتحمنا الجوع والحرمان والفقر كالسيف وأصبح الحطب أغلى من البشر، اضطر أبي لاقتلاع حبيبتي من الأرض كي يجعلها وقودًا للبطون الخاوية!.. لم أستطع إنقاذ سوى غصن صغير بنهدٍ كبير حول عنقه..

بعد سنوات طوال، سألني صديقي:

- ما سر هذا الغصن المحترق الذي تحتفظ به في الدولاب؟!

- إنها زوجتي التي قُتلت!

(2018/2/25) ساعة الغروب.

لعنة الأطفال

استيقظتُ ظهيرة يومٍ ما فوجدت أن ساقًا قصيرة ثالثة قد نبتت بين ساقيَ الاثنين، ارتعبت جدًّا ولفرط فزعي وخوفي حاولت الهروب راكضًا خارج المنزل، ولكنني لم أستطع، إذ كلما حاولت الاتزان تفقدني هذه الساق الملعونة التوازن فأقع.. حُملت على الأكتاف كنعش وهرعوا بي إلى أفضل أطباء ومستشفيات البلد ولكن لا أحد يعرف السبب أو العلاج.

رجل قديم كالشجرة قال:

- هذه الساق مس من الجن، اذبحوها كالنعجة عند أحد المراقد وسيبرأ.

ربطوا أوصالي جيدًا ووضعوا في فمي خرقة سوداء اللون وعند الفجر بتروها أمام مرقد كبير. عادوا بي فرحين يجعرون بالزغاريد والتكبير والتهليل..

بعد عدة أيام نمت ساقان بدل القصيرة المقطوعة وأصبحت أمشي على أربع كالخروف! بتروهن!!...

وجدت نفسي أتسلق الحوائط بثمانية أرجل، أسكن الزوايا، أمضغ الحشرات، أكور الخيوط وأختبئ خلف الجدران.. وفي ليلة ماطرة دخل عليَّ في غرفتي العلوية رجل طويل القامة، قبيح الوجه، أشعث الخصل، رث

الملابس، تفوح منه رائحة الدم والقيح، يحمل على ظهره عصا طويلة، في نهايتها تكورت قطعة قماش كبيرة ممتلئة تنزل منها قطرات الدم كالزير. قال لي:

– أعطني سيقان الأطفال التي سرقتها.

– ماذا؟!!

أجبته وأنا معلق في السقف.

أعاد الجملة نفسها بغضب ثم أومأ إلى سيقاني الكثيرة، هبطت من ملكوتي بخيطٍ صنعته بفمي، تكورت أمامه وقلت:

– عذرًا، أنا لا أفهم.

حدجني باشمئزاز ثم أكمل:

– كنت قبل عشرين عامًا قد وضعت دمية متفجرة أمام إحدى مدارس الأطفال وهربت، أليس كذلك؟!

تجمدت لهول الصدمة، حككت رأسي بإحدى سيقاني وأجبت بصوتٍ خفيض منكسر:

– نعم، حدث ذلك.

– وهل تعلم ما كانت النتيجة؟!

– ستة أطفال سقطوا مبتوري الأرجل.

– بالضبط، ألم أقل لك ذلك منذ البداية؟!

ثم أنزل عصاه الثقيلة، فض القماش القاني اللون، وأخرج منه ستة أطفال يصرخون جميعهم بساقٍ واحدة...

(2018/3/7) الساعة الثالثة فجرا.

فناء

في عـام 3000 للمـيلاد، وبعـد سـنوات طويلـة مـن الحـروب العالميـة والأهلية والدينية. وبعد أن غضبت السماء فضربت المياه بنيازك من الجحيم المنتقم، جاءت بـالتزامن مع صـواعق، وبـراكين وأعاصير وعواصـف وأمـراض ومجاعات لم تهدأ لقرون. انتهت البشرية على الأرض تقريبًا واختفت جميع القارات بساكنيها ويبست جميع المحيطات فأصبحت وديانًا مرعبة وعميقة، ولم يبق الآن إلا أشخاص يعيشون في كهفٍ كبير تحت الأرض، حفره نيزك منذ قرن...

كـانوا مائـة فقـط، يرتـدون الجلـود، يتسـلحون بالصـخور، يتوسـدون الأذرع، ويأكلون العشب من مرعى أخضر صغير، تكون بمحاذاة بركة مياه راكـدة. كـانوا بـلا أسمـاء ولا لغـة، يتكلمـون بالإشـارات ويكنـون بعضـهم بالأرقام.. ثمانون رجلًا وخمس عشر امرأة وخمسة أطفال، هـذا مـا تبقى من البشرية كلها!..

لم يكونـوا بحاجـةٍ للغـة ليـدركوا أنهـم آخـر مـا تبقـى علـى هـذه الأرض، وأنهـم آخـر أمـل في تكـوين البشـرية مـن جديـد. لـذا أصـروا بعضـهم البعض

كالعناقيد وتشبثوا بالحياة بما تبقى لديهم من مخالب وتعاهدوا على البقاء معًا كي ينقذوا هذا الكوكب. يخرجون كل صباح للمرعى، يجترون العشب كالغنم ويتمرغون قرب المياه كالكلاب ثم يعودون عند الغروب كي يهجعوا في الكهف كالخفافيش. ذات يوم وبعد أن رجع الجميع إلى الكهف. وبدأوا بعد أنفسهم كي يتأكدوا من تعدادهم كما العادة فوجئوا بأن الرقم تسعة غير موجود..

- أين اختفى الرقم تسعة؟!

اتسعت الأحداق ريبةً واهتزت الأرواح خوفًا وبدا على وجوههم قلق واضح حقيقي لهذا الاختفاء الغريب، إذ لم يغب أحد عنهم منذ أكثر من عشر سنوات، بعد ساعات من الصمت اليائس الممل، دخل عليهم الرقم تسعة الكهف بثغرٍ باسم وجبين متعرق. وقف أمامهم كتمثالٍ مبتسمًا وقبل أن يشير إليه أحد بإصبع اتهامٍ صغير، فتح يديه كمن يريد أن يدعو كتلك الأقوام التي كانت تؤمن برب السماء قبل أن يفنوا من الأرض جميعًا!

وتلاها بابتسامةٍ عريضة لم تخلُ من بلاهة لتكشف يداه عن قلادةٍ فضية اللون، بسوارٍ جلدي يتوسطها قلب كبير صدئ الأطراف. نظر الجميع إلى القلادة بشغفٍ وذهولٍ كبيرين. ثم تقدم رجل عظيم الهيئة، ضخم الأطراف، أشيب الشعر، بدا من لحيته وتجاعيده أنه أكبرهم عمرًا، كان يدعى الرقم مائة، نظر إليه غاضبًا كمن يقول أين كنت، لم يرد الرقم تسعة سوى بأن رفع يديه ليريه القلادة.

تغيرت الأيام بعدها، أصبح الرقم تسعة محط أنظار الجميع واكتسب أهمية جديدة وفريدة وواسعة. أصبح الرجل الوحيد الذي تتهافت عليه الأعين أينما حل أو ذهب.. الجميع يريد مصاحبته، ويتمنى أن يتقرب إليه، كما يفتخر بمعرفته له، إنه الرجل ذو القلادة الفضية، سعيد الحظ من يضحك معه وأسعد حظًّا من يرافقه إلى العشب فجرًا، أما الأسعد حظًّا بين البشرية كلها فهو من يجعله يلمسها، وهذا لا يحدث إلا نادرًا.. تصارعت النساء لكسب وده وقلبه وقلادته!

فواحدة تتعرى أمامه، وأخرى تغمزه بعينها، وثالثة تغريه بنهدها البارز المتضخم، أما الأكثر جرأة فكانت تلك التي هجمت عليه وهو نائم!..

سرت بين الرجال غيرة كالسم وتجلت في أعينهم نظرات كره وحقد وحسد خبيث. واستعدت أرواحهم بشرٍّ مضمور وعنفٍ قادم. ثم انقسموا إلى أكثر من معسكر. الكبير صاحب الرقم مائة ومعه عدد من الأرقام المؤيدة يرى أن القلادة بدعة ويجب أن تُرمى في البركة.. وآخرون يقودهم الرقم عشرة يعارضون ويؤمنون بالحرية وبحقه في ملكيته الخاصة، أما البقية فقد كانوا على الحياد.. وهكذا انقسم الكهف لأول مرة في حياته!..

تشاجر ذات صباح رجلان، أحدهما يحب صاحب القلادة والآخر يبغضه. تنامى الشجار وتسامى كالبخار إلى أن وصل ذروته فقام المحب بقتل المبغض بعد أن سحق جمجمته بصخرةٍ عظيمة. عُقدت محكمة ببشرٍ عُراة إلا من جلد الحيوانات وأصدر الرقم مائة قرارًا بوجوب التخلص من القلادة فورًا.. رفض الرجل رقم تسعة تسليم قلادته فأعدموه لمخالفته القانون وحدث

ذلك بعد أن جروه إلى البركة وجلس فوقه أربعة أشداء ليموت غرقًا.. بعدها أخذت القلادة وسلمت إلى الزعيم رقم مائة، ليتخلص منها وينهي شرها الآثم.. كانت الصدمة مفجعة كجنازة عندما أطل عليهم الزعيم في اليوم التالي وهو يرتدي القلادة على صدره كعروس. بعد ليلتين قُتل الزعيم واختفت القلادة.. وُجهت الاتهامات لبعضهم البعض وبدأ الشك يتوغل إليهم كعاصفة. وتشكلت مجاميع كثيرة من المعارضين والمؤيدين والطامعين والحاقدين والحاسدين، فانقسموا وتعصبوا وتحزبوا واختلفوا وتناحروا وتقاتلوا وتذابحوا وأنهوا بعضهم بعضًا.

بعد أشهر قليلة، ظهر طفل وحيد يبكي في كهفٍ وبين يديه قلادة صغيرة فضية اللون، صدئة الأطراف، قضت على آخر ما تبقى من البشرية!..

3000/1/3 ميلادي

مرآة

ذات صباح، نظرتُ إلى المرآة فأدركت أنني بلا وجه! أتلمس وجهي فأجده لكنه لا يظهر أمامي، فركت عيني بيدي، مسحت الزجاج، نفخت عليه ولكن لا شيء، لا أثر لوجهي، ظننت في البدء أن المرآة هرمة ولا تعكس الأشياء، أخذت مرآة يدوية صغيرة من على الطاولة ونظرت فيها فكانت النتيجة نفسها.

خرجت راكضًا إلى بركة مياهٍ صغيرة في الحديقة، كانت من صنع غيمة قديمة أمطرتنا وماتت ويا لهول المفاجأة! ها أنا أظهر بكامل جسدي ولكنني بدون رأس، ها أنا واقف أمام البحيرة كفارسٍ قطعوا رأسه في نزالٍ ولكنه ظل حيًّا وطفق راجعًا إلى بيته.

أين ذهب رأسي؟!

توجهت بعدها إلى الشارع فوجدت رجلًا طويلًا كمِحنة، رفعت رأسي إليه وسألته:

- هل ترى وجهي؟!

- ماذا؟! هل أنت مخبول؟!

رد بعنف.

إذًا وجهي موجود لكنني لا أراه.. أصابني الحزن وابتلعني الغم وبدأت الكآبة والخوف والحيرة والقلق تهجم على أوصالي كالأشباح. جربت كل أنواع المرايا؛ الكبيرة، الصغيرة، الطويلة، العريضة، السوداء، الشفافة، المكسورة والسليمة، مرايا المحلات، السيارات، القطارات، البحيرات، الأنهار، المستنقعات، أضواء الشوارع، الجسور، التقاطعات، الصور الفوتوغرافية. فيديوهات الهاتف، كل شيء، والنتيجة هي لا أثر لرأسي، العجيب في الأمر، كنت أنا الوحيد الذي يرى ذلك.

قلت لأمي فبكت ووضعت يدها على رأسي تقرأ الآيات، قلت لأصدقائي فضحكوا وتغامزوا وتنابزوا فيما بينهم. قلت لأساتذتي فنصحوني بمراجعة طبيبٍ نفسي. أخيرًا استسلمت لهذا الواقع المرير وقبلت أن أقضي بقية عمري دون أن أرى وجهي مجددًا.

كنت في الحافلة، راجعًا إلى بيتي مع أصدقاء أعرفهم منذ أيام الجامعة، أخرجوا صورنا القديمة وبدأوا بالضحك على وجوهنا في تلك الأيام، نزلوا جميعًا في المحطة التالية وبقيت وحدي أطالع الناس من النافذة.

- لماذا تكذب؟!

قالتها عجوز كانت جالسة خلفي.

- عفوًا!

أجبت بهدوء.

- أنت لم ترَ وجهك منذ عشرين سنة!!

أجابت بصوتٍ كفحيح الأفعى.

خرست كأن جبلًا قد أطبق على فمي، وقبل أن أستدير أو أنطق بحرفٍ، أكملت:

- أنت في الحقيقة لم تفقد وجهك.. وجهك موجود، ولكنك فقدت الجرأة للنظر إلى وجهك منذ تلك اللحظة، تلك اللحظة التي بدأت تشعر فيها بالخجل من ملامحك.. أو تذكر تلك اللحظة؟! دعني أذكرك بها جيدًا، كان عجوزًا معاقًا بكرسي متحرك يحاول أن يعبر الشارع، توسل إليك بعينيه أن ساعدني، احتقرته، وأكملت طريقك وحدك. بعد لحظات كان الرجل مسحوقًا تحت عجلات شاحنة سوداء كبيرة الحجم!

التفتُ بسرعة كمن ضُرب على قفاه بقوة. كنت وحدي في الحافلة ووجهي ظاهرًا أمامي على مرآة السائق!...

(2018/4/1) الواحدة ليلًا.

مدينة بلا بشر

كانت مدينة بلا بشر، لا أعرف متى أو كيف دخلتها؟! كل ما أتذكره هو أن يدًا سوداء مظلمة كبئرٍ، خنقتني كالسوار وجرتني من عنقي كفرس، ورمتني بأحد حقول مزارع الكرز، استيقظت عند منتصف الليل، كان القمر شديد الاصفرار ينظر لوجهي باكيًا والغيوم لها أيدٍ تومئ بالوداع، والرياح البعيدة تعوي كذئبٍ طُعن في الخاصرة وعندما تصل لأذني تهمس بخوف:

- النجدة!

انتفضتُ واقفًا، نفضتُ التراب عن ملابسي، نظرت نظرة عميقة للأفق، قطعت عنقودًا كبيرًا كوجه، وضعته في فمي وهممت بالمسير.. كانت مدينة خالية من الأجساد، القمصان تطير وحدها بدون أذرع، والأحذية تقفز وحدها بلا أقدام، والسراويل ترفل وحدها دون سيقان، كانت الأشجار بلا أغصان، الحمائم بلا أجنحة، العصافير لها أنياب، العنادل لا تصدح، الأنهار تجري بالدموع، الأحجار تصرخ بأفواهٍ كبيرة والقبور تضحك بوجوه المارة كالعجوز...

كنت جالسًا على حافة نهر عندما قال صوت ما:

- هل جئت لتنقذها؟!

ثم خرج رأس فتاةٍ صغيرة من المياه.

- أنقذ من؟!

أجبت ببرود.

- تنقذها كما فعل الجميع قبلك.

- ومن هي؟!

- أنقذها كي تنقذنا!

قال الرأس ذلك وغط في النهر.

وقبل أن أقف لأكمل مسيري، مرت بي قبعة كبيرة من القش، كانت تطير وحدها، وقفت أمامي وقال فم ما من تحتها:

- أسرع أرجوك، عليك أن تكون هناك قبل الفجر!

عند منتصف المدينة وجدت فتاة رائعة الجمال، نصفها العلوي ظاهر ونصفها السفلي قد ابتلعته الأرض، قلت لها:

- هل أنتِ هي؟!

- نعم، وهل ستنقذني من لعنتي؟!

ردت بغنج.

- بالتأكيد.

- ولكن ألا تخاف إن فشلت فتُلعن أنت أيضًا وتصبح واحدًا من كائنات هذه المدينة؟!

نظرت إلى نهديها البارزين كوجهين من نافذة وقلت بثقة:

- كلا، لا أخاف.

- جيد، كل ما عليك هو أن تكون صادقًا، صادقًا فقط، أجبني بصدق كي تنقذني وتنقذ هذه المدينة بأكملها.

تنهدت، قشرت قلبي الصغير بسكينٍ، وأكملت:

- هل فكرت بعد أن تنقذني أن تحصل على مبتغاك مني؟!!

صدمت بهذا السؤال، وأجبت بعد ترددٍ وتفكيرٍ طويل في شعرها المسافر كفراشة:

- بالطبع لا!

كنت في قاع النهر، قدماي مغروزتان في الطين كالقصب، أخرجت رأسي ببطءٍ فوجدت رجلًا جالسًا على رابية... قلت له:

- هل جئت لتنقذها؟!

(2018/4/9) الخامسة فجرا.

الخالدون

كانوا قومًا خالدين، قرية كاملة من الرجال لا يموتون، لا يشيخون، لا يمرضون ، لا يكبرون، لا يَقتلون ولا يُقتلون.. في مكانٍ قصيٍّ بعيد لا يُعرف له طريق ولا يُستدل عليه بدليل، عاش هؤلاء الرجال بلا خوف أو مرض أو موت، كانوا بلا نساء، عندما يولد وليد لهم فإنه ينبت من الأرض كالسنبلة، يخرج رأسه أولًا ثم صدره وذراعيه ويبقى جسده السفلي تحت الأرض منغرسًا بها بساقيه كجذرين، وحينما يخرج الرأس في أول الأمر ويبدأ بالصراخ، يتجمع الرجال حوله ويبدأون بوضع أصابعهم الوسطى في إناءٍ من العسل ثم يدخلونها كاملة في فمه، وما أن يهدأ رأس الوليد ويبدأ بمص الإصبع كحلمة حتى يصبح صاحب تلك اليد أباه، فتنهال عليه الأكف بالمصافحة والتهنئة والتبرك.. يبقى الوليد هكذا ثماني ليالٍ، يمتص الأصابع ثلاث مرات يوميًّا ومن بعدها يقتلعه الأب من التربة كرأسٍ من الفجل وما أن ينظف قدميه من الطين ويضعهما على الأرض كي يقف لأول مرة في حياته حتى ينطلق الصغير فرحًا يركض في الحقول.. وهكذا تكاثروا وأصبحوا قبيلة من رجال الأرض، ليس فيها دمعة مريض ولا ثدي امرأة ولا خوف محتضر ولا حتى

صرخة وداع في مقبرة.. كان ينبت لهم كل شهر رأس طفلٍ جديد من حقلٍ صغيرٍ ذهبي التراب، فضي الصخور، يتوسط القرية كما تتوسط المراقد أتباعها المخلصين.. كانوا سعداء بخلودهم، فرحين بشبابهم الدائم، مساندين لبعضهم البعض، مخلصين لآبائهم ومحبين لأولادهم النابتين من أرضهم.. وقفوا أمام الحقل في بداية كل شهرٍ كعادتهم، ينتظرون بزوغ وليدهم الجديد، وعند الظهيرة رعدت قلوبهم بقلقٍ مزعج وحيرةٍ مظلمة وخوفٍ جديد لا يعرفوه إذ أنها المرة الأولى التي تتأخر عليهم التربة بمنة الإنجاب.. انتظروا طويلًا، وفي المساء عادوا لمنازلهم خائبين وفي عيونهم نظرة تقول: "لمَ أصاب العقم أمنا الأرض؟!" كانت ليلة دهماء كَكُحل، عندما مزقت صرخة امرأة حادة عليهم الخيام كالصاعقة.. فزعوا من منامهم وهرعوا خوفًا وفضولًا إلى مصدر الصوت في الحقل، تجمدوا كوجوهٍ صُب عليها الرصاص عندما رأوا وجه طفلةٍ صغيرة بجدائل سوداء نابتة من الأرض، تصرخ من الجوع والخوف.. بعد أن خف وقع الصدمة على وجوههم واقتنعت أنفسهم بذاك الارتياح المخجل الواقعي كشخصٍ دفن وليده بيده ثم شعر بالجوع، تساءل أحدهم بخوفٍ واضح:

- ما هذا الكائن؟!

- لا نعرف.

كان ردًّا جماعيًّا ولكنه يختلف.. رد الشخص الأول:

- نعرف.

أجابت الجماعة ببرود:

- والآن، ما العمل؟

سأل أحدهم بصدق، تنحنح أحدهم بوضوحٍ وقال بصوتٍ واثقٍ ومتحدٍّ كمن داس على مسمار ولا يريد أن يعرف أحد ذلك:

- لاشيء، نُكمل الطقوس بحذافيرها.

وبالفعل استعدوا، تجمعوا، جلبوا وعاءً من العسل، غمسوا أصابعهم الوسطى فيه وبدأوا بوضعها في فمها الواحد تلو الآخر..

- هذا الشيء هو ولدي!!

صرخ أحدهم هكذا عندما كانت تمص العسل من إصبعه.

- هنيئًا لك.

قالوها لأول مرة بدون حماس وذهبوا لبيوتهم، بعدها بأشهرٍ كانت الفتاة الوحيدة التي تعدو حافية في قريةٍ من الرجال.. قالت لوالدها ذات يوم:

- جميع الأطفال يكرهونني وينعتونني بالوحش لأن لدي شعر طويل، ووجه صغير أبيض، لمَ أختلف عنهم يا أبت؟!

لم يرد بشيء، اكتفى بقص شعرها وصبغ وجهها بلونٍ أسود ثم ألبسها بنطالًا كان يرتديه وهو في مثل عمرها، كانت القبيلة في سلمٍ تام حتى برز لها نهدان لئيمان كتفاحتين، كان لأمهم تاريخ مخزٍ مع نبيٍّ قديم.. كانوا يركضون في حقلٍ من الذرة، عندما حاول الابن الأصغر لشيخهم الخالد أن يعتصر ثدييها صارخًا:

- ماذا تخبئين هناك؟!

رفضت بشدة وبعد أن هجم عليها كمفترسٍ، صرخت خائفة وضربته على رأسه بغصنٍ كبير كانت تحمله، خر على إثره إلى الأرض صريعًا وسالت أول دماء القرية، تركته جثة هامدة ورجعت إلى البيت بنفسٍ هادئة وضميرٍ لم يذنب!.. بعد أن رحلت قال غراب مخيف، كبير الحجم ينظر إلى الجثة من فوق تلٍّ قريب:

- يجب أن يتعلموا دفن الموتى تحت الأرض!

في الصباح التالي وُجدت جثة في حقل.. انتفض الجميع، انتشرت الغوغاء، ساد الرعب، تفشى الخوف، كشّر الفزع عن أنيابه، تلبسهم الحزن والشجن والقلق والانكسار، بكت العيون لأول مرة في حياتها.. ومشت الأقدام في الجنازة الوحيدة منذ قرن، دفنوا قتيلهم الوحيد، في حقل ولادتهم المبارك عسى أن ينبت رأسه من جديد ثم بُني له أول قبر في التاريخ، أول قبر على هذه الأرض احتوى جسدًا طويلًا، أغراه نهد وقتلته امرأة، أنشئت أول محكمة في تاريخهم وأمر الزعماء الخالدون بأن تُعطى الفتاة لوالد الشهيد تعويضًا له عن ابنه الفقيد المسكين.. لم يُسلم الأب ابنته فهجموا عليه كرجلٍ واحد، حزوا رأسه بفأسٍ كبيرة، علقوه ليتدلى من غصن شجرة جرداء ثم جروا الطفلة من جديلة نبتت حديثًا وسلموها إلى الشيخ الثكلان، تحقيقًا للعدالة، في ذات الليلة ربطها الشيخ على السرير واغتصبها انتقامًا لابنه القتيل، فولدت بعد تسعة أشهر ثاني امرأة لهم ولكنها لم تكن من باطن الأرض بل من رحم امرأة مغتصبة.. لم تعد تنبت الأرض الأطفال مجددًا، فعقم الرجال وتصحرت الحقول وادلهمت الأنفس وخلت الشوارع من

الأطفال.. بعد أن اكتشف شيخ كبير أن أرحام النساء كالحقل يمكن أن تنبت الأطفال أيضًا، جمع حوله عددًا من الرجال وهجم على بيت الفتاتين، انقسموا إلى قبيلتين؛ كل واحدة بشيخها ورجالها وفتاتها، أنجبت الفتاتان نساءً جديدة، كثرن بكثرة ولوج الرجال بهن وأصبح عدد النساء نصف عدد الرجال، فتكونت العوائل وشيدت البيوت وتأسست الروابط ورجع الأطفال يصرخون في الشوارع من جديد، ذات يوم بدأوا ببناء أول مقبرة كبيرة لهم بعد أن أصبحوا يموتون كل يوم، إما قتلًا أو مرضًا أو هرمًا.

2018/6/27 الساعة السابعة مساءً

أرق

كان لا يستطيع النوم أبدًا. لا يتذكر متى أو كيف حدث ذلك، كل ما يستطيع أن يتذكره أنه قبل أكثر من عشرين سنة، حلمَ بأنه يحمل جثة بين يديه ويمشي حافيًا على جسرٍ من خشب. استيقظ مرتعبًا عند منتصف الليل، كان القمر بدرًا، والريح تأكل أوراق الشجر خارجًا، وأصوات بعيدة تصل متقطعة كصراخ أطفال، وغراب أسود بثلاثة عيون ينعق على نافذة غرفة نومه. فرك عينيه بيديه، نظر إلى النافذة مجددًا؛ لا شيء سوى صمت مخيف كالموت، وظلمة عظيمة كأن فمًا ما قد ابتلع القمر بأكمله. حاول النوم مجددًا ولكنه لم يغمض له جفن منذ تلك الليلة البعيدة. لم يدع طبيبًا أو منجمًا أو ساحرًا أو حتى عجوزًا شمطاء علم عنها أنها تبرئ الأكمه وتشفي الأبرص، إلا وزارها، تعاطى جبلًا من الحبوب، ذبح النحور عند المراقد، شرب من نقيع العطارين، ركض حتى أغمي عليه، فعل كل شيءٍ لكنه لا ينام أبدًا. عندما يأتي الليل ينتفض واقفًا كرمح ويفتح عينيه على اتساعهما كجرحٍ فُتح بسكين ويبقى يعد النجوم بأصابعه كالأطفال لحين شروق الشمس. صار يحسد الناس على كوابيسهم، يحسد الموتى على

رقادهم، يحسد حتى الحشرات التي تهجع إلى بيوتها عند الغروب وتنام، فلا شيء مرعب في الحياة أكثر من أشباح القبور، سوى الوحدة والسهر!...

قال له رجل في فجرٍ بارد:

- ضمور عينيك مخيف، كأنك لم تنم منذ سنة!

- بل منذ عشرين.

قالها بتهكم..

- عجيب!

رد الرجل.

- ولم العجب؟! جميع الناس يعانون من الأرق وقلة النوم!

قالها بضحكة مصطنعة.

- كلا لم أقصد ذلك، ولكنني أعرف امرأة نامت منذ عشرين سنة ولم تستيقظ إلى الآن!

نظر الرجلان إلى بعضهما البعض نظرة غريبة ثم أردف الذي لا ينام:

- هل ماتت؟

- كلا إنها تتنفس، تتنهد، تبتسم، تبكي، تحلم، وتصرخ من الكوابيس دومًا ولكن كل هذا وهي نائمة، لم تستيقظ منذ عشرين سنة. حاولت قتلها مئات المرات كي أريحها لكنها لا تموت، فقط تحلم!

دخل عليها فكانت تصرخ من حلمٍ ما، نظر إلى وجهها فهدأت. جلس قربها فتنهدت، حدثها بصوتٍ خفيض فابتسمت، أدار وجهه عنها، صرخت مرة أخرى، بكى لحالها وهم بالخروج، وقبل أن يخرج، لاحت منه

نظرة إلى النافذة البعيدة خلفه، فرأى غرابًا بثلاثة أعين يرنو إليه، تذكر حلمه فجأة، رجع إليها احتضنها بقوة فماتت، حملها بين يديه وسار بها على الجسر الخشبي الوحيد والذي يصل بالمقبرة، وضعها على العشب ووضع رأسه على قلبها، أغمض عينيه ونام.

في اليوم التالي؛ قال أحدهم:

- وجدنا اليوم في المقبرة جثتين لعاشقين كانا قد افترقا منذ أكثر من عشرين سنة!!

(2018/4/14) ساعة الغسق.

أقنعة

لا أحد كان يعرف ما هو شكلهم على الإطلاق. كانوا قبيلة كاملة من الأقنعة، الجميع يرتدي الأقنعة من شيخهم إلى صغيرهم، لم يكن يُعرف لهم شكل أو عمر أو صوت أو حتى اسم، كانوا بشرًا مقنعين!

حينما يولد الرضيع في تلك القبيلة، تنفرد أمه معه في غرفة مظلمة، وما أن تضع قناعًا على وجهه وتخرج به إلى الملأ رافعة إياه إلى السماء حتى تصدح جميع الأقنعة الباقية بأصوات التبرك والتهنئة، داعين ربهم المقنع في السماء ألا يسقط عنه القناع أبدًا فتظهر بشاعته ونفاقه البشريان!

كانوا يولدون ويموتون دون أن يعرف أحد سر وجوههم سوى ملك الموت. قناع قديم كقبرٍ قام خطيبًا فيهم ذات ليلة:

- أنتم أيها الصادقون كغيمة، أنتم الذين لم تغركم العيون والشفاه البشرية فتحولتم إلى ما دون حقيقتكم. اخترتم أن تكونوا حقيقيين وعفويين وطبيعيين كالأطفال. فلم تضحكوا في عرس، ولم تبكوا في مقبرة، لم تتجهموا بوجه الطالبين ولم تجاملوا الحمقى والسذج، لم تكذبوا لأنكم لا ترون وجوهكم، ولم تتكبروا لأنكم لا تدركون جباهكم! ولم تسرقوا لأنكم لا

تعرفون ما هو الجشع، ولم تخونوا لأنكم أصلًا لا تعرفون ما هو الجمال. أنتم أنقى من هدير الأمواج ، وأصدق من عندلة الطيور، وأطهر من أوراق الصحف المقدسة، والسبب هو سجنكم لأرواحكم واختباؤكم خلف أقنعتكم، يكفيكم فخرًا أنكم القبيلة الوحيدة في هذا الكون التي خلت من النفاق والكذب والرياء والسرقة والخيانة والقتل والسبب يعود لجهلكم ببعضكم البعض، فالوجوه فقط، الوجوه التي تعرف بعضها تقتل!

ذات يوم كان هناك طفلًا صغيرًا من قبيلة الأقنعة يسير في مرج من العنب، حينما صادف فتاة صغيرة من قبيلة بعيدة بلا قناع سألته:

- لِمَ تضع قناعًا على وجهك؟!

- كي لا أكذب.

- ومن قال لك ذلك؟

- أمي، أمي تقول لي دومًا: "لا تخلع قناعك أبدًا وإلا ستكذب!"

قالها بشغف وردت الفتاة الصغيرة بضحكة:

- أنا لا أضع قناعًا ولا أكذب أبدًا!

قال لأمه تلك الليلة:

- صادفت فتاة لا تضع قناعًا، تقول أنها لا تكذب!

- إنها تكذب.

أجابت بغضب.

- وكيف عرفت؟

سألها ببراءة.

- لا يوجد شخص على هذه الأرض بلا قناع لا يكذب.

- وماذا يحدث إن كذبنا؟

- هل خلعت قناعك أمامها؟!

ارتبك كورقةٍ وأكمل:

- أبدًا يا أمي!

قال هذا وهو ينظر لقناعه في المرآة، وضعت يدها على قناعه الصغير كي تتأكد من ثباته وأكملت:

- إن كذبنا سنفقد عذريتنا، وإن فقدنا عذريتنا سنفقد أرواحنا، وإن فقدنا أرواحنا سننافق بعضنا البعض، وإن نافق بعضنا البعض سنكره غيرنا، وإن توغل الكره لقلوبنا سنقتل بعضنا البعض.. ولهذا نحن لا نخلع أقنعتنا أبدًا.

لا نعلم تمامًا كيف ومتى حدثت المجزرة، كل ما نعرفه أنها بدأت عندما وجدوا تحت أرضهم معدنًا أصفر اللون يدعى الذهب، يقول حكيم أشيب كقمر:

- كنا قبيلة من الغجر، نرتحل كلما ضاقت بنا سبل العيش. كنا في ترحالنا هذا حتى وصلنا إلى قبيلة كانت قد قتلت بعضها البعض بالكامل، بيوت هُدمت، أبقار بقرت، أطفال صُلبت، نساء تم تعريتها، ورجال قصار، قصار جدًّا ككذبة! منحورين من العنق، طفوا على بحيرة من الدم، الحراب في أكفهم، والأقنعة على وجوههم.

استقبلنا طفل بقناعٍ صغير، قال لنا وهو يبكي:

- قلت لأمي أن تخبرهم، أنني لم أنزع القناع أبدًا ولكن لم يصدقها أحد!

(2018/4/20) ساعة الشروق.

احتضار

كان في الخامسة من عمره عندما قالت له أمه وهي تحتضر:

- هذه الدنيا للذئاب يا صغيري، عش وحيدًا واهرب بجلدك!

منذ أكثر من ثلاثين عامًا، وهو يعيش وحيدًا في غرفةٍ منعزلة مغروسة كالسكين في مبنى هرم لا يسكنه إلا الموتى أو المجانين. طويل الشعر أشيبه، عينان سوداوان ضعيفتان من الظلمة، جسد نحيل وطويل كمسمارٍ تحت مكبرة، ولسان ثقيل كجثة لكونه لم ينبس بحرف طوال حياته! لا يتكلم، لا يتسم، لا ينفعل، لا يبكي، لا يعرف ما هم البشر وأين هم أصلًا.

وحيدًا في هذه الغرفة التي هي كل عالمه وأحيائه، رفيقه الوحيد عنكبوت ضخم بحجم اليد، كان قد هرم وتوفي قبل أيام، وتلك كانت المرة الأولى التي يشعر فيها بالحزن! فهو صخرة لديها أرجل وتخاف الناس جميعًا. رأى من النافذة قبل سنوات بعيدة جدًّا، طفلة تدهسها عربة في الخارج، تذكر أمه فصرخ وصبغ النافذة بلونٍ أسود قاتم. وقطع آخر خيط يمكن أن يربطه بكائنٍ بشري..

ضحكة لامرأة غريبة اخترقت أذنه كرصاصة، فقام مرتعبًا من النوم ووقف على السرير، وضع كفه خلف أذنه ليستدل. بعد صمتٍ مخيف ينذر بكابوس، اخترقته الضحكة مرة أخرى واضحة متحدية، مجلجلة كأفعى إفريقية. قفز من السرير، ركض إلى إحدى زوايا الغرفة، أخذ عصا طويلة كي يصد بها الكائن المفترس. تكور هناك وهو يرتجف خوفًا ورعبًا. إذ كانت هذه المرة الأولى التي يسمع بها شخصًا يضحك، تواصل الضحك والهمس والكلام المرسل غير المفهوم، وبعد مضي فترة استشعر بها الأمان، نهض ببطءٍ وأخذ يتتبع الصوت حتى وجده..

ثقب صغير كانت قد صنعته حشرة، يطل على الغرفة المجاورة، هو من أوصل الصوت إليه. توقف الصوت فجأة، وبعد ترددٍ طويل، وسع الثقب بإبهامه ووضع عينه اليمنى ليبصر، كانت فتاة في العشرين، جميلة الوجه، واسعة الأعين، دقيقة الأنف، رقيقة الحواجب، غمازتان تتفجران عند الضحك كأنهما القيامة، لديها سرب من البجع يطير فوق رأسها تدعى (جدائل)، وعينان عسليتان خلقهما الله عندما أراد أن تكون العيون رسالة للغفران والرحمة، وجسد ناعم طويل يخترقك بلؤم كخنجرٍ مسموم كان قد استحضر لقتل رئيس قبيلة.

كانت تشاهد التلفاز وتضحك، وضع يده على قلبه فرجف، أراد أن يرجع بغضبٍ ويحمل بعض الورق كي يسد الثقب، لم يستطع، وجد نفسه ملتصقًا بالثقب كعلقة..

تغيرت حياته بالكامل، ينتظرها عندما تستيقظ، يأكل معها، يبتسم لسعادتها، يبكي لانكسارها، يمرض لمرضها، لا ينام إلا بعد أن تنام ولا يستيقظ إلا على صوت غنائها الصباحي. ذات يوم بعد أن لمحت الثقب بنظرةٍ شاردة، ذاب قلبه في صدره وارتعب رعبًا لذيذًا من نوعٍ آخر، ركض في أنحاء الغرفة باحثًا عن أي قطعة زجاجٍ صغيرة كي يرى وجهه في المرآة، إذ انتابته رغبة ملحة في تصفيف شعره، وكانت تلك المرة الأولى التي يرى بها شعره. عرف الأغاني والموسيقى من خلالها. وذات مرة حاول أن يغني فخاف أن يفضحه صوته، فالتفع ببطانية سميكة وارتمى تحت السرير وأخذ يغني بصوتٍ خفيض حزين كعاشقٍ هجرته الحبيبة.

تزوجت!

وعندما أبصر الرجل الجديد وهو يلثم حبيبته ويعانق رداءها الأبيض؛ أعطى ظهره للحائط وسقط على الأرض باكيًا، وكانت تلك المرة الأولى التي يبكي فيها طيلة حياته.

أنجبا ثلاثة أطفال، أحبهم جدًّا، يركض معهم، يضحك لهم، يناغيهم، تعلم معهم أول حروف الكتابة، كبر معهم، شاركهم أسرارهم، أولى حبيباتهم، أولى انكساراتهم وخساراتهم، وعندما بكى الابن الأكبر لفراق أول حبيبة؛ نظر إليه وهمس بصوتٍ خافت من خلال الثقب:

– أعرف شعورك تمامًا!

تساقطت السنوات كشلالٍ لا يهدأ، ورحل الجميع؛ الأب إلى المقبرة، الأولاد إلى أحضان زوجاتٍ بعيدات، ينظر إليها الآن وهي وحدها في المنزل، مستلقية على فراش وتتنفس بصعوبة، قالت تخاطب نفسها:

– سأموت وحيدة!

غص قلبه بوجعٍ مرير وطفرت من عينيه دمعة بللت لحيته البيضاء، استجمع قواه وحفر الثقب بأصابعه القديمة، حتى غدا كالنافذة، عبر بصعوبةٍ بواسطة عكازه الخشبي، جلس قربها، مسح على خدها وقال:

– لست وحدكِ.

فتحت عينيها ببطءٍ وقالت:

– من أنت؟

أجاب بصوتٍ واثق:

– أنا من ضحكتِ لتجعليه إنسانًا.

ابتسمت ونامت إلى الأبد، قبل جبينها، غطى رأسها بالملاءة وخرج، وكانت تلك المرة الأولى التي يخرج فيها من الغرفة...

(2018/5/1) الثامنة والربع مساءً.

وجه في جدار

في ليلةٍ مظلمة، ماطرة كصغارٍ تبكي، وأنا في غرفتي وحيدًا، خرج لي وجه من شق جدارٍ قديم، كان وجه عجوزٍ بعينٍ واحدة في منتصف الجبين، لها ضفائر تنتهي برؤوس أفاعٍ صغيرة تفح. قالت بفمٍ أحمر، يحتوي جوفه على نابين فقط.

- اجلب لي رأس طفل رضيع وسأعلمك كيف تحيي الموتى.

قلت بضحكةٍ مصطنعة أخفت فزعي الذي ارتداني كقميص:

- أو تريدين أن أستبدل الأطفال بالموتى؟!.. لن أفعل.

- سنرى ذلك.

قالتها بثقةٍ ساحرة واختفت في الشق، نسيت ذلك الحادث تمامًا كحلمٍ تلاشى عند الفجر ومضت بي سنوات طويلة وكثيرة كقطيعٍ من الذئاب بعضها يأكل بعضًا من اليأس والجوع. كنت في منتصف العمر عندما رأيتها لأول مرة، امرأة مصنوعة من التين تجلس كبجعةٍ أمام بحيرة، ساقها اليمنى فوق اليسرى وفي حجرها رواية أحسست أن من فيها من أبطال قد خرجوا وانتحروا عند الجرف تحت قدميها الملتفتين، قلت لها بصوتٍ تكسر كالموج:

- ماذا تقرأين؟

أجابت دون أن تنظر:

- وهل حقًّا يهمك؟

هل هناك معمل لإنتاج السم قريب من هنا؟! ألا تعرفين يا سيدتي، مرتفعًا يضمن الموت كي أرمي هامتي الطويلة منه؟ هل من المعقول أن تكون الحروف لها وقع الصنوج والدفوف؟.. ألا يوجد في هذه الرواية بطل قومي لديه خنجر طويل يغرسه في عمودي الفقري؟! هكذا كنت أهذي أمامها. وقد تملكني اليأس حتى تمكن مني كورمٍ متوغل في الدم. قلت:

- أنا أسيرك.

أجابت كأول نبية لهذه الأرض:

- وأنا لا أقوم بأسر القلوب الحرة.

كان حب ما قبل النهاية، ذلك الحب الذي يطرق الباب عندما تفقد الأمل بالوجود. حينما تصبح الألوان باهتة والإحساس بالضياع حقيقة، عندما تتحول الحياة لضفدع والسنوات إلى حشرة ليس لها أي جدوى. حين تمطر الغيوم أحجارًا حارة والرياح تخنق الأعناق كالأيدي. وتفقد الثقة بلون السماء وحين تصبح الأنهار شرايين دم ملوثة، والعشب أصابع بأظفارٍ طويلة تسحب المارة إلى باطن الأرض. والأشجار تركض خلف الأطفال، والطيور السوداء تقتلع العيون بمناقيرها، عندما يُجن كل شيء، عندما يتوحش كل شيء.

يأتي هذا الحب السرمدي حينئذ ليرسم عالمًا زهريًّا ويبعثك طفلًا من جديد. يقدم إليك ليقول، لا تيأس فأنا سأقتلع الأحزان العميقة، وأمسح الدموع بالأكف بدلًا عن المناديل! فأعمق الحب وأصدقه هو من يأتي بعد غلق الأبواب. وها قد أتت حبيبتي.

عشنا بلا خوف أو قلق، أحلام لا تنتهي وسعادة لا تنضب ووله لا يشيب وطفولة لا تكبر وخبل لا يريد أن يعقل أبدًا، وعشق جديد يتفجر في كل موسم مثل كمأ الأرض. لا نحزن ولا نضجر ولا نختلف ولا نمل ولا حتى نعطش، فكيف يعطش من ينام النيل بقربه؟!

وذات يوم جف النيل واحترقت الحديقة بما عليها، عاصفة من المسامير اقتلعت السعادة، وحش مخيف بسيفٍ صقيل قد حز حبيبتي..

رحلت من كانت الدليل الوحيد لزرقة السماء! دخلت بسربٍ من الفراشات وخرجت وحدها في تابوت. حين دفنتها وعدت وحيدًا إلى البيت. لمحت الشق القديم فتذكرت وجهها بأفاعيه، لم أتردد لحظة، اقتربت من الجدار وصرخت:

- أما زلت تريدين الأطفال؟!!

خرج الرأس مبتسمًا:

- يبدو أنك فقدت عزيزًا، ألم أقل لك؟

أجابت بخبث.

- علميني كيف أحيي الموتى.

قلتها بغضب.

- اجلب لي رأس طفلٍ رضيع.

وقبل أن أرد أضافت:

- يجب ألا يكون قد أكمل سبعة أيام.

قالت ذلك ودفنت أفاعيها خلف الجدار، انطلقت إلى أحد بيوت القرية إذ كنت أعلم أنه قد ولد لهم طفل قبل يومين فقط.

ما هذا التناقض المخيف؟ أيمكن أن يجعلك الحب قاتلًا وقاتلًا للأطفال؟! أليس الحب هو السلام والإيثار، فكيف يقتل من كان عاشقًا؟!.. هذا كان عقلي مخاطبًا قلبي، أجابه قلبي وأنا أجري لاهثًا إلى البيت:

- كي أستردها فأنا على استعداد أن أمضغ قبيلة من الأطفال!!

أخرستهم!.. نزلت إلى غرفة الرضيع من خلال فتحة (مدخنة) قديمة، انتظرت حتى نام الجميع، وضعت خرقة على وجهه، اقتلعته من مهده كثمرة، وانطلقت هاربًا. ظهر وجهها المخيف من الجدار، مددت يدي بالطفل، سحبته الأفاعي، التفت حوله ودخلت به إلى الشق.. عادت بعد لحظات قائلة:

- خذ هذا الدم وانثره على ما تبقى منها، وستبعث إليك حية من جديد.

ناولتني زجاجة بدمٍ أزرق، هدمت القبر، نبشت التراب حتى ظهرت عظامها المقدسة، نثرت عليها الدم فعادت كما كانت، احتضنتها باكيًا وسرنا إلى البيت معًا..

عرفت في اليوم التالي، أنها ستعيش لليلةٍ واحدة فقط، وستموت في اليوم التالي. فمفعول الدم لا يستمر سوى ليلة واحدة.

لم يبقَ طفل في القرية. ها أنا أخرج باكرًا أبحث عن الأطفال الرضع في القرى المجاورة!..

(2018/5/3) حلم عند الفجر.

صوت

استيقظ من نومه على صوتٍ عنيف، بدا كأن أحدًا ما يقرع الباب بقوة، نهض بجسدٍ بطيء الخطى، ثقيل الأجفان، متجهم الملامح، متضايق الأسارير، فتح الباب بغضب ولكن لم يكن هناك أحد.

نظر يمينًا ويسارًا، انتظر قليلًا ثم أغلق الباب بضجر وعاد لسريره، وقبل أن يرتقي السلم نظر إلى مكان كلبه المعتاد فلم يجده. فرك عينيه ليزيل عنهما آثار النوم، تثاءب بخمولٍ بارد وأخذ ينادي باسمه. تنامى قلقه تدريجيًّا مثل ماء نهرٍ يغلي! وبدأ صوته الهامس يعلو لصراخٍ قلِق..

لم يجد له أي أثرٍ في المنزل، ارتدى معطفًا أسودًا طويلًا غطى مقدمة قدميه، ولف عنقه بـ (كوفية) رمادية اللون، وانطلق يبحث عنه في الأحياء المجاورة. لم يعتد أبدًا ألا يجد كلبه عند النهوض صباحًا، فما أن تنزل قدماه من السرير أو مجرد أن يمط ذراعيه كسلًا بعد ليلةٍ طويلة أحيانًا. حتى يجده عند الباب، أبيض اللون بشعرٍ كثيف يغطي عينيه الزرقاوين، صغير الحجم، ذا أنف أسود رطب، يهز ذيله بلا ضجر كالبندول.. ولهذا أجتراه قلق مزعج كمطرٍ خفيف ومضى يبحث عنه في هذا الفجر البارد..

أول ما لفت عينيه العسليتين، شجرة الكستناء الكبيرة في منتصف الشارع، إذ كانت أغصانها عارية تمامًا بلا أي ورقة، كأنثى خرجت من الحمام.

ركز عينيه كمن أصيب بعشى ونظر إلى الشجيرات التي كانت مصطفة أمامه على الرصيف ولكن كن كالأولى بلا أي اخضرار. توجس قلبه قليلًا ولكنه أكمل المسير هامسًا:

- ما هذا الخريف الغريب؟!

عبر الشارع متجهًا إلى مدرسة أطفالٍ كبيرة، وجدها فارغة هادئة كالقبر، لا صوت فيها سوى صرير الأبواب القديمة.. رجع وتوقف في منتصف طريق المدينة الرئيسي..

صُدم كمن رأى شبحًا فقد كان وحده تمامًا، الشوارع فارغة من المارة، السيارات مرصوفة على الجوانب بلا ركاب، النوافذ خالية تمامًا فلا رأس يظهر ولا يد تلوح، والأرض صامتة تمامًا كأنها ابتلعت البشر دفعة واحدة ثم خرست كمن يشعر بالذنب..

لا يوجد في هذه المدينة الهائلة السكان سواه!.. ركض خائفًا وهو ينظر إلى السماء عله يلمح غيمة، نجمة، حمامة، سربًا من الحمام أو حتى غرابًا ناعبًا منتظرًا لموته. اتجه إلى الغابات القريبة فكانت كبساطٍ محترق، فلا أفاعٍ في الجحور، ولا أسماك في البحيرات ولا قوارض بين الحشائش ولا طيور على الأغصان ولا حتى دبيب حشرة تحت الأرض، أما الأشجار فكانت مجرد هامات طويلة بلا رؤوس أو أطراف..

كانت الحياة بلا حياة!

ارتعب لهذه الفكرة فوضع يديه على ركبتيه لاهثًا من التعب وقال بصوتٍ متقطع:

- أيعقل أن الكون بأكمله قد مات وأنا نائم؟!

وقبل أن يستقيم ظهره، جدحت بذهنه فكرة كالبرق:

- إن كان الجميع موتى فمن الطبيعي أن يكونوا قد دفنوا في المقبرة.

حمل هذه العبارة واتجه راكضًا صوب المقبرة الكبيرة. لم تكن الصدمة في المقبرة أقل وطئًا من يومه الكابوسي، فما أن وصل الباب حتى وجد أن جميع القبور قد اختفت ولم يبقَ إلا قبر واحد جديد الهيئة، ذو سقف مفتوح كنافذة، اقترب من القبر فبدأ بسماع أصواتٍ مبهمة بعيدة، انحنى على القبر، وضع رأسه في الفتحة ونظر إلى الأسفل المظلم. هدأت أنفاسه قليلًا وأرهف سمعه وأخذ يسمع أصواتًا تبكي، أصواتًا تصرخ، أخرى ترتل، صوتًا غاضبًا يلعن، صوتًا هادئًا ينتحب، صوتًا يئن بوجع، صوتًا يهمس بالرحمة، صوتًا يضحك سرًّا، صوتًا يتثاءب بضجر، نادى بأعلى صوته، صرخ حتى ظن بأنه قد مزق الظلمة كالشعاع.

حاول بكل الطرق أن يقول لهم أنه هنا فوقهم ولكن بلا جدوى. بعد أن يئس من سماعهم له، وثب داخل القبر كمن يريد أن يخرج الناحية الأخرى، وما أن دخل حتى أطبقت الفتحة عليه وساد صمت ثقيل كالموت!

في الخارج، تجمهر الكثير من البشر يرتدون السواد حول شاهد قبر، عليه اسمه وتاريخ وفاته. يدور حولهم كلب صغير أبيض اللون لا يكف عن النباح.

ساعة الموت.

دهشة

إنه يتذكر ذلك اليوم جيدًا. يتذكره بقوةٍ ووضوح كمن رأى شجرة تمشي على قدمين وتتدلى من غصونها رؤوس الأطفال كالثمار. ذلك اليوم حينما جثا الصمت على المدينة كصخرة سقطت من جبل وفقد الجميع أصواتهم دفعة واحدة.. كانوا يتكلمون، يبكون، يصرخون، يضحكون، يلعنون، يهتفون، يهمسون، يتألمون، يعشقون ولكن بلا صدى لحرفٍ واحد، صمت مطبق كرحم..

العجيب في الأمر؛ أنهم كانوا كمن لا يدركون شيئًا فتتحرك شفاههم، وتكفهر وجوههم، وتبكي عيونهم وتغضب أرواحهم وتتغضن جباههم وتتحرك أطرافهم كمن يسمعوا بعضهم البعض تمامًا. في ذلك اليوم خرج من بيته مسرعًا كسهم، فوجد السماء صماء كمقبرة وجميع البشر تحتها صامتين كغرقى المستنقعات فلا حفيف لشجرة، ولا طنين لذبابة، ولا خرير لجدول ولا حتى صرخة لوليدٍ جديد ضجر من الحياة منذ أول لحظة!

عبر الشوارع المزدحمة، جلس تحت ظلال الأشجار، توقف عند نائحات الجنائز، نظر إلى كلبٍ ينبح على ربوةٍ تتوسط صبية يلعبون الكرة في منتزه،

تنهد لعاشقين يتبادلان القبل في مصعد ولكن كل هذا بلا صوت، بلا صوت أبدًا:

- ما هذه اللعنة المخيفة، من سرق أصواتهم ولم لا يشعرون بذلك؟!

هكذا كان يحدث نفسه حينما أجابه صوت من خلفه.

- بالفعل، فهم لا يدركون ذلك أبدًا.

التفت إلى مصدر الصوت فوجده رجلًا في الأربعين، أسمر البشرة، مصفف الشعر، خفيف اللحية، متوسط الطول، عريض الأكتاف، أخفى دهشته الواضحة كجرح وقال:

- أسمعتني؟!

- بالطبع سمعتك.

أجاب الرجل بابتسامة.

- ولكن كيف ذلك؟!

- لا أعلم بالتحديد، كل ما أعلمه هو أننا مجموعة من الأشخاص نسمع بعضنا البعض بوضوح، نلتقي في غرفةٍ بيضاء اللون.

- وهم، أليس هناك أمل بأن تعالج خرسهم؟!

- إنهم متكبرون، يتعالون على مرضهم وعوقهم، لا يرتضون بالعلاج ويتصرفون بتصنعٍ تام مدعين السمع والمعرفة.

- دعنا من هؤلاء المرضى، ألا تأخذني معك إلى قومك الناطقين، فقد سئمت من معاشرة البُكم؟

وانطلقا معًا بروحٍ هادفة وخطى واثقة وكبرياءٍ جامحٍ متحدٍّ، حتى دخلا مبنى أبيض اللون، جميل الهيئة، رهيب الأبواب، برزت من على أحد جدرانه الخارجية لوحة خُط عليها بأحرفٍ واضحة مذهبة النهايات:

(مستشفى الأمل لعلاج الصمم وفقدان السمع المبكر!)

بلا تاريخ.

حلم

بدأ كل شيءٍ عندما رأى في منامه أن والده سيموت بعد ليلتين، رمى عنه الغطاء وقفز مرتعبًا، لاهثًا، عطشًا، لا يستطيع أن يزدرد ريقه كأنه ابتلع الصحراء برمتها وهو نائم. مسح العرق عن جبينه، نفض رأسه رافضًا الفكرة كقطٍّ أحس بالبلل، قرأ كلامًا مقدسًا، شرب من آنية فخار كانت على يمينه، وهجع للسكون مجددًا. بعد يومين، كان والده نعشًا على الأكتاف.

قال وهو يضرب برأسه على حائطٍ قديم صارخًا:

- أنا من قتلته!

أما أمه فكانت تلطم صدرها المخسوف كواحة وتقول:

- رحمتك يا من في السماء، فقد مات زوجي وجُن ولدي!

ونام الأيام التي بعدها ليحلم بالغيب الإلهي!.. حلمَ بغرق قرى بعيدة، حلمَ باحتراق حقل ذرة، حلمَ بسقوط زعيم القبيلة من على فرسه فتُكسر عنقه، حلمَ بموت طفلة من الملاريا، حلمَ بقتل رجل لحماره الهزيل غضبًا منه، حلمَ بزوجة قامت بتسميم زوجها لأجل خلوة مع عشيقها، وما أن وصل غيبه لسرير المحصنات!..

حتى وجد نفسه ذات ليلة يركض هاربًا في حقول عباد الشمس ويركض خلفه جمع غفير من الرجال المسلحين بالفؤوس والمناجل وهم يصرخون:

- أيها الساحر الأفاق.

حط رحاله في قريةٍ بعيدة لا يعرفه فيها أحد، وبعد أن أضناه الجوع والعطش والتعب، هم بدخول مقهى يتوسط الشارع كي يختبئ بظله، حتى صدمه فرس أسود يعتليه شخص عظيم الهيئة ليسقط على بعد عدة أمتار فاقدًا لوعيه، غارقًا بدمائه..

فتح جفونه بصعوبةٍ وتثاقل، فوجد نفسه في غرفةٍ بديعة الأثاث، أنيقة الستائر، ذهبية النوافذ، مرصعة الجدران، أراد أن يتحرك فأحس بألمٍ عظيم في يده وساقه..

- لا تتحرك.

صوت له وقع الخنجر قال هذا..

نظر إلى مصدر الصوت فوجد فتاة في العشرين على رأسها تاج من الزمرد، سوداء الشعر، عذبة الملامح، زرقاء العينين، بجسدٍ بض يسبح داخل رداءٍ شفاف أزرق اللون، وشفتين من الكرز كأنهما تقولان بهمس: "أنا أشهى ما خلق الله".. خفق قلبه بوجعٍ أكبر من وجعه وقال متسائلًا:

- عفوًا؟!

جلست بقربه وندت عنها ابتسامة اقتلعته من الجذر كدغل الحدائق وأكملت:

- نحن متأسفون جدًّا، كان حادثًا بسيطًا، صدمك والدي بفرسه عندما كنت تعبر الشارع. أنت الآن في بيتنا، في غرفة الضيوف ولك منا كل العناية والاهتمام.

شكر القدَر لأول مرة في حياته وشكر السماء لأنه فقد الوعي ولم يحلم هذه المرة!..

توالت الأيام بسرعة وظهرت علامات العشق واضحة جلية على محياهما كتجاعيد الشيوخ، وسرت في شرايينهم صبابة ووله أعمق من الدم، وتفجرت ينابيع الحب السرمدي تحت أرجلهم طائعة صافية كينبوع في أرضٍ واسعةٍ جرداء! وجدحت أعينهم بشوقٍ فاضح لذيذ شفيف، يراه الضرير من خلف النوافذ البعيدة حتى أصبحا كيانًا دمويًّا بشريًّا واحدًا لا يفترقان، كجسدٍ أسطوري خُلق برأسين!..

وفي ليلةٍ ما، حلمَ أن شخصًا ما قد سُحق تحت حوافر فرس. استيقظ على صراخٍ مزعج خلف الأبواب، دخلت الخادمة تلطم خدها وتقول:

- سيدي الكبير مات، سحقه فرسه الأسود!

تنهد بحسرةٍ مؤلمة وحدث نفسه قائلًا:

- ها هي أحلامي تقتل هنا أيضًا!

بعد عدة شهور سألته وهي تدفن أصابعها الصغيرة في كفيه:

- هل تحلم بي يا حبيبي؟

تذكر أحلامه وموتاه، فصرخ بسرعة:

- بالطبع لا.

- لا!

سحبت يدها بغضبٍ وصرخت كلبؤةٍ جريحة:

- لا تريد أن ترى وجهي في أحلامك؟!

- نعم، لا أريد.

أجاب بصوتٍ منكسر لا تفهم مغزاه وقبل أن يكمل خرجت وتركته وحيدًا.

ابتلعه خوف مرعب، واستشرت بجسده النحيل رعشة قلق قاتلة، ووثب من فوق السرير واقفًا صارخًا بسؤالٍ قد جال بخاطره العاشق لأول مرة:

- ماذا لو حلمت بها؟!

ونظر لوجهه في مرآةٍ بعيدة وأجاب:

- سأقتلها، نعم سأقتلها بكل تأكيد.

- وما الحل؟

سأله وجهه البعيد.

- الحل هو ألا تنام.

أجاب وجلس بخوفٍ ثقيل..

جلب شفرة حادة، فتح جلده بسكين، ووضع الملح فيه، كان يصرخ من الألم والتعب ولكن كل هذا يهون، المهم ألا ينام، هكذا كان يحدث نفسه.

بعد عدة أيام من السهر والألم والإعياء، استسلم للنوم كالموت، استيقظ بعد ساعاتٍ وصرخ:

- لقد حلمت!

سألته الخادمة التي كانت ترعى صحته:

- حلمت بمن يا سيدي؟!

أجاب والدموع تملأ محجريه:

- حلمتُ أنها وحيدة وحزينة كالشجرة، سأقتلها هذا المساء، سيقتلها حلمي.

أراد أن يهرع لنجدتها فركض نحو الباب بصعوبة، ولكنه توقف إذ تذكر أنه لا يمكن لقوةٍ في الدنيا أن توقف أحلامه، فهي إله لا يتخلف عن موعده، بكى كثيرًا وانكسرت روحه الشفيفة كزجاج البيوت، صرخ بيأس المحتضرين وشنق نفسه عند الظهيرة..

استيقظت فتاة على رأسها تاج من الزمرد وقالت لوصيفتها بخوف:

- حلمٌ غريب!

أجابت الوصيفة بطاعة:

- وما هو يا سيدتي؟

- حلمتُ أن رجلًا ما قد شنق نفسه في غرفة الضيوف!

أجابت وهي تنظر إلى عصفورٍ ينقر على النافذة.

(2018/6/15) عند الظهيرة.

(+A)

هاتَف مركز الشرطة بعد منتصف الليل بقليل وقال:

- أود أن أُبلغ عن رجلٍ يريد قتلي.

- وما هي أوصافه؟

رد المأمور بكسل.

أجابه الرجل بثقة:

- لم أره في حياتي أبدًا! ولكنني متأكد أنه سيقتلني ذات يوم.

بدأ كل شيءٍ عندما رجع ذات يوم إلى المنزل فوجد أن شخصًا ما قد اقتحم غرفته وكسر دولابه ورمى كل ملابسه على السرير، ارتعب جدًّا وبدأ بالبحث في كل أرجاء المنزل، عله يجد دليلًا أو شيئًا تركه المقتحم خلفه. في الباحة الخلفية للمنزل وجد فردة حذاءٍ واحدة كانت عالقة في الطين، من المحتمل أن المقتحم لارتباكه قد تركها وهرب.. جلبها معه ونظر إليها، أعجبه جدًّا لونها وتصميم مقدمتها، كانت زرقاء بطرفٍ نحاسي مدبب. سحب الدرج الأخير من الدولاب، غلفها بكيس ووضعها فيه.

استيقظ من نومه فزعًا على إثر صوت عنيف في الغرفة السفلية للمنزل، جلس صامتًا على السرير ليتأكد، جاء الصوت مرة أخرى قويًّا جريئًا مقتحمًا، نزل السلم بخطواتٍ مرتجفة واتجه إلى مصدر الصوت، وجد باب الغرفة مواربًا قليلًا، يصدر صريرًا خافتًا في الذهاب والعودة كرجل كُسرت أضلاعه، أما قبضته فكانت مغطاة بأكملها بدمٍ أسود، دالة بوضوح على ذبحها لليد التي حاولت كسرها.

- دم من هذا؟!

سأل نفسه بهذه الكلمات ثم جال ببصره في الغرفة بخوف، ليتجه بعدها مسرعًا إلى رأس ثورٍ محنط كان مستقرًّا كلوحة في منتصف الجدار، اقتلعه من القرون، حمله كسلاح، واستند إلى الحائط منتظرًا بأنفاسٍ ثقيلة، أكمل مسيره بعد لحظات بخطى صامتة تمامًا. عبر في طريقه من أمام مرآة كبيرة كانت تتوسط الغرفة، خيل إليه أنه سمع شيئًا فرجع عدة خطوات، نظر إلى أسفل المرآة، باحثًا وما أن رفع رأسه ونظر لوجهه في المرآة حتى برز من خلفه شخص ما بملابس سوداء وقناع مرعب أخفى به ملامحه، صرخ خائفًا، حاول الالتفات ولكنه ضُرب على رأسه بشيءٍ أشبه بالقرن الذي يحمله فسقط على الأرض فاقدًا الوعي...

استفاق على سريره وكأنه قد سقط من جبل لكثرة الوجع والدوار، تذكر الرجل والمرآة والضربة فانتفض واقفًا يبحث في البيت من جديد. كان كل شيءٍ كما هو سوى قبضة الباب المدماة، وأثر خطوات طينية يابسة لحذاءٍ جال في بيته..

تذكر فردة الحذاء الزرقاء التي في الدرج، جلبها، فض عنها الكيس، وضعها على الأثر فكانت مطابقة تمامًا..

- إذًا هذه خطواته وذاك دمه على الباب.

قال ذلك بصورة واضحة كمن يخاطب أحدًا، ارتدى ملابسه وهم بالخروج.

استرسل المأمور مخاطبًا إياه بضجر:

- تقول أن هناك شخصًا يحاول قتلك ولم تره أبدًا!

زفر الرجل وأجاب:

- نعم، كل ما أعرفه أنه جرح يده أثناء محاولته كسر الباب، ويرتدي حذاءً أزرقًا مدبب اللون.

بعد عدة أيام من التحري والبحث؛ هاتفه المأمور وقال:

- فصيلة الدم على المقبض كانت من النوع (A+) وصاحب المتجر الذي باع الحذاء يقول أنه تلقى اتصالًا من عنوان منزلك، أي أن الرجل الذي يحاول قتلك هاتف متجر الأحذية من منزلك وأعطاهم عنوانك كي يصله الحذاء عن طريق التوصيل السريع!

- ماذا؟!

صرخ كرجلٍ عقيم اكتشف أن زوجته حامل!!

وصل إلى البيت متأخرًا فشاهد ظل رجل يلوح على النافذة العلوية للمنزل، صرخ به وركض بسرعةٍ جنونية، اقتحم الباب، ارتقى السلم بثلاث وثبات، دخل الغرفة فوجدها تحترق، حاول أن يرجع إلى الأسفل ليجد ما

يخمد به النيران فشاهده، ظلًّا أسودًا يقبع في الظلام كشبح، اشتبكا، تصارعا كمفترسين، حاول أن يزيح عنه اللثام لكنه لم يستطع، كان بطوله تمامًا ويساويه في القوة وضخامة الجسد. بدأت النيران تأكل الستائر كأفواه الضواري الجائعة ومن هناك انطلقت شرارة صغيرة بعنفوان مراهقة واستقرت على السرير لتعلن عن بدء احتراق البيت بالكامل..

خنقا بعضهما البعض كالغرقى ثم احتضنا كعشاق الروايات وبدأوا بالضرب والسير متصارعين حتى سقطا من النافذة على الأرض.. أفاق في المستشفى صباحًا، قال له الطبيب:

- لِمَ أحرقت منزلك وحاولت الانتحار؟!

وقبل أن ينبس بحرفٍ واحد، لمح جرحًا كبيرًا على يديه!

ثم نظر إلى حذائه أسفل السرير، فكان أزرقًا ذا طرف نحاسي!

أخرسته الصدمة كصاعقة، وقبل أن يكمل قال له الطبيب:

- لقد نزفتَ كثيرًا، تحتاج لعملية نقل دم من النوع A+.

2018/6/11.

رجل يمشي برأسين

لم يعرف أحد على وجه التحديد، ما هو أو ماذا يُدعى! كان رجلًا كبيرًا برأسين، في الولادة خرج رأس واحد أولًا وما كادت القابلة أن تبتسم وتبارك الأم الطريحة، حتى خرج الرأس الثاني بصورةٍ مخيفة فصرخت بفزع:

- إنه برأسين.

سألت الأم زوجها في حيرةٍ واضحة:

- أأنجبت طفلين بجسدٍ واحد، أم جسدًا واحدًا برأسين؟

- بعد ثلاث سنوات، وجد الجسد نفسه وحيدًا في بيتٍ واسعٍ كبير بعد أن سقطت أمه من شرفةٍ عالية لتبتلعها الأرض ويرتفع اسمها شاهدًا فوق قبر، أما والده فقد هرب إلى مكانٍ مجهول تاركًا رسالة خطها على حائطٍ بمسمارٍ منقوع بالدم، إنه مخيف عندما يرنو إليك بأربعة أعين.. كبر الجسد وحيدًا حتى ظهرت لحيتاه وخط الشيب على جوانب شعره الأربعة.. جلس الكائن تحت شجرة والتفت أحد الرأسين إلى الآخر وقال:

- أود أن أطلب منك معروفًا.

- وما هو؟

رد الآخر بعد أن نظر إليه فظهر الجسد كعاشقين متقابلين ينويان تقبيل بعضهما البعض.

- اقتلني.

- ولِمَ تريد موتك؟

قالها بوجهٍ لم يُظهر أي رد فعل.

- أريد أن أتخلص منك.

- ولكنك أنا، نحن لسنا شخصين.

- لا يهمني، تعبت من الجلوس وحيدًا كقبر.

- ولكنني معك.

- أولم تقل منذ ثوانٍ أننا لسنا بشخصين؟!

- لا أحد يطيقنا خارج هذا البيت، ولا نملك إلا بعضنا البعض، فنحن وحش مخيف برأسين ويمشي على ساقين.

- لا يهمني، سأنتحر هذا المساء.

- وكيف ذلك؟

- سأخنقك بالوسادة عندما تنام لتموت فيموت كلانا، نحن بقلبٍ واحد.

- لن أتركك تفعل هذا.

- وكيف ستقاوم؟

- سأفقأ عينيك بأصابعي.

- حتى وإن فعلت، سأستدل على وجهك بسهولة، أونسيت أنك جسدي؟!

- سأبتر أصابعك كلها.

- أستطيع قتلك بابتلاع لساني لأموت.

- صرت الآن تريد قتلي؟ كنت تريد الانتحار قبل قليل.

- لا يهمني، المهم هو أن أتخلص منك.

- ولِمَ صبرتَ عليّ كل هذه السنوات؟

- صبرت لأنني كنت أجهل الحقيقة.

- وما هي الحقيقة التي اكتشفتها أخيرًا، أيها العبقري؟

- الحقيقة هي أن الدنيا ليست لأمثالنا.

- الدنيا للأصحاء، لمن يمتلك عينين وساقين وفمًا واحدًا، تريد قول هذا، أليس كذلك؟

- كلا، الدنيا للموتى وليست للأحياء. الدنيا بما تحتها ليست بما عليها.

- لم أفهم.

- أين يدفن الموتى؟

- تحت الأرض.

- ولِمَ ذلك؟

- كي لا تتعفن جثثهم.

- غبي، هذا قول الكاذبين، إنهم يتم دفنهم كي لا يروا، كيف يعودون إلى الحياة من جديد.

- ماذا تعني؟

- هل رأيت ميتًا يعود إلى الحياة؟

- بالطبع لا.

- أرأيت؟ هذا ما أعني، لو كانوا موتى بحق لعادوا إلى الحياة من جديد ولكنهم يتحولون تحت الأرض إلى جذورٍ تكبر بعدها لتصبح أشجارًا طويلة.. انظر لتلك الشجرة، أترى ذلك الكلب الذي يبول على أسفلها؟

نظر الرأس الأيمن خلفه، فشاهد الكلب رافعًا إحدى ساقيه، تمتم وقال من هناك:

- نعم أراه.

- إنه يبول على هذه الشجرة لأنها كانت مربيه الذي يشبعه ضربًا كل يوم، وما أن مات وتحول إلى شجرة حتى عاد الكلب لينتقم، ألم تلاحظ كيف يشم ترابها؟ إنه يتعرف إليه.

عاد الرأس إلى وضعه الأول فتقابلا ثم قال:

- وأي هذه الأشجار أمي؟!

- أمي لم تتحول إلى شجرة بل إلى حمامة.

- ولم ذلك؟

- لأن لديها أطفال صغار، الأمهات المرضعات، هن فقط من يتحولن إلى طيور كي يعدن للاطمئنان على صغارهن، ألا تذكر بعد الوفاة، تلك الحمامة التي كانت تقف كل يوم على النافذ؟

- نعم، أتذكرها جيدًا كوجهك!

- والآن، ألا تريد الموت كي تتحول إلى شجرة خضراء وارفة الظلال تحط عليك الحمائم والفواخت بدلًا من أن تبقى وحشًا مخيفًا يسكن في الظلام وحيدًا؟

- نعم أريد.

- إذًا دعني أقتلك.

- كلا، أنا أخاف الموت.

- اقتل نفسك كي نموت سويًّا.

- لك ذلك.

استيقظ في الصباح فوجد أن رأسه الآخر قد شنق نفسه بحبلٍ يتدلى من سطح.. أنزل جسده المعلق في الهواء، نظر إلى رأسه الآخر فكان أزرقًا كبحر، لفه على عنقه بخرقة ومشى به متسائلًا:

- لِمَ لم يمت معه؟!

كان رجلًا مات رأسه، فمشى إلى المقبرة وحيدًا كي يدفنه بنفسه تحت الأرض.

بلا تاريخ

مجزرة مباركة

كانت عائلة سعيدة مكونة من ثلاثة أفراد، يسكنون قبوًا قديمًا لبيتٍ كبير، خروف هرم بقرونٍ ونعجة بيضاء حلوب وحمل صغير جميل الشكل..

في ليلةٍ مظلمة، قال الخروف لنعجته بصوتٍ مرتجف:

- لقد اقترب العيد!

- وإن قدم؟!

ردت وهي ترضع حملها.

- إنه عيد الأضحى!

فزعت لهذه الإجابة، لطمت صدرها، حضنت وليدها بقوةٍ وصرخت بثغاءٍ حادٍّ خائف:

- سيذبحون أحدنا فرحًا به، ستُحز أعناقنا كما فعلوا بالجميع قبلنا، الرحمة يا إلهي!

عندما جروه من القرون صباحًا، نظر إلى زوجته وقد خضلت شعيرات فكه الأسفل بالدموع:

- لا تقولي له أنهم قتلوني كي لا يفزع.

سأل الحمل الصغير والدته بعدها بليلة:

- أين ذهب أبي؟

أجابت وقد أخفت دمعة ثقيلة كجبل:

- لقد ذهب إلى الجنة.

- ومتى يعود؟

- لن يعود.

- ألا يريد أن يرانا بعد الآن؟!

- كلا يا ولدي، الجنة مكان أخضر جميل جدًّا ولكنه مزدحم دومًا ولهذا ذهب قبلنا ليحجز لنا مكانًا فيها.

- وهل سنذهب وراءه؟

- بالطبع، في العيد القادم!

هنا لم تستطع كتم الدموع، فسقط الجبل بما عليه وركضت خارجة إلى الحقل.. كان يقفز ويثغو في الحديقة فرحًا عندما قابل قطة البيت المدللة الكثيفة الشعر.. سألته وهي تلعب بكرةٍ أمامها:

- مالي أراك سعيدًا أيها الحمل الصغير؟

- أنا سعيد لأننا سنرحل إلى أبي قريبًا.

- حقًّا! وأين سترحلون؟

أجاب بعد أن توقف عن اللعب:

- إلى الجنة، فهو ينتظرنا هناك.

لعقت أطرافها بلسانها ونظرت إليه بجد وردت:

- لكن، أبوك قد مات.

- ماذا؟! أنتِ كاذبة خبيثة.

- ربما خبيثة ولكنني لست كاذبة، تعال لأريك.

وضعت مخالبها على حوافره وجرته إلى نافذة غرفةٍ قريبة وقالت:

- أترى تلك الجثة التي تتوسط مائدة الطعام، إنها أبوك.

بعد أن تأكد من هيئته، تركها وعاد منكسرًا إلى أمه وقبل أن يصل إلى القبو، توقف فجأة وقال متسائلًا بصوتٍ مسموع:

- أي جنةٍ هذه التي يؤكل فيها الآباء على الموائد؟!

2018/6/16

قبور

كنا أربعة أطفال نلعب (الغميضة) في مقبرة النجف. يضع أحدنا رأسه بين يديه ويتكئ على أحد القبور ثم يبدأ بالعد.. نركض نحن البقية بجنون للاختباء خلف أحد القبور. كانوا سعداء الحظ جدًّا، لديهم عشرات القبور للاختباء خلفها، قبر والدهم، قبر أخيهم الشهيد، قبر أختهم التي انتحرت، قبور أعمامهم، قبور عماتهم أو قبرًا بعيدًا لأقربائهم..

كنت الوحيد التعس الذي يختبئ خلف قبور الغرباء..

سألت والدي ذات يوم:

- أبي لمَ لم تمت إلى الآن؟!

أجاب أبي بابتسامة:

- ولمَ تريد موتي يا ولدي؟!

- كي أختبئ خلف قبرك.

- اطمئن سيحدث ذات يوم.

قالها وهو ينظر إلى الأرض.

ذات صباح رأيت أمي النحيلة منحنية على قبر أبي تضع رأسها بين يديها وتبكي، قلت لها:

- لا تبكِ يا أمي، لن أختبئ بعيدًا!

(2018/2/12) صباحا في الحافلة.

قمر بلا فم

عندما رأيت القمر لأول مرة؛ سألت أمي:

- لم هذا الوجه الكبير بلا فم؟!

أجابتني:

- اسمع يا صغيري، عندما يكذب البشر فإن الرب يعاقبهم بأخذ أفواههم وتحويلهم لوجوه في السماء، لا تكذب أبدًا.

عندما شرحت ذلك للأطفال في الشارع؛ سخروا مني وقالوا أمك كاذبة!..

عدت ذات يوم إلى البيت وكانت أمي في تابوت؛ نظرت إلى القمر ليلتها..

- لمَ كذبت يا أمي؟!

(2018/2/10) منتصف الليل.

كابوس

حلمتُ قبل خمسين سنة، أن جسدي قد تحول إلى غيمة، ورأسي إلى قمر، وقدميّ إلى جذعين من الصنوبر، لم أرتعب ولم أجزع، بل أخذت بالمضي بعيدًا صوب البحر وأنا أرنو لدبيب أقدامي المخضّرة، ولكن ما إن أشرقت الشمس حتى طار رأسي، فأكملت بدون رأس، وما إن وصلت البحر حتى تكورت بطني كالحبلى وأنجبت آلاف القطرات وتلاشت، قفلتُ راجعًا إلى بيتي بقدمين من الصنوبر فقط، كانت في الطريق جنازة لشهيدٍ مستلقٍ على الأكتاف بلا نعش.. وما أن رأوني قدمين من الخشب تركض، حتى هجموا عليّ وقطعوا ساقي وصنعوا منها نعشًا طويلًا لشهيدهم.. الغريب في الأمر أنني منذ أن استيقظت وإلى الآن وأنا أشعر بأنني أجر الموتى خلفي!!

2018/6/27 قبل شروق الشمس

أم على مسمار الحائط

كنا خمسة أطفال بلا وجوه. كان أبي يجوب الشوارع المعتمة، ليبيع الشيب والدمع للنساء الثكالى حديثًا. كان بيتنا كقارب النجاة ولكن بلا نجاة. لم يكن لدينا قدور أو سكاكين، كنا نفترس الخبز بالمخالب كالذئاب، ولم يكن لدينا خزانة للملابس، كانت الخزانات مسامير على الحوائط. اعتادت أمي حينما تعود أن تعلق عباءتها الوحيدة على مسمار المطبخ، هكذا كنا نسميه!...

على الرغم أننا طوال حياتنا لم نعرف شكل المطبخ كيف يكون. في أحد الأيام كنا نصرخ من الجوع كالبراكين، رجعت أمي راكضة لاهثة من الخوف والفزع ولفرط حيرتها علقت نفسها على المسمار، واتجهت نحونا عباءة فقط.

في اليوم التالي ارتدت أختي الصغيرة أمي من على الحائط وخرجت....

(2018/3/19) العاشرة صباحا.

جارتي العجوز

في طفولتي كانت جارتي العجوز تطل برأسها من خلف الباب، كي تودع ابنها الوحيد الراحل إلى الحرب. في إحدى المرات، ذهب ولم يعد.

منذ ذلك اليوم وإلى الآن والعجوز لم تخرج من البيت!..

(2018/2/5) الخامسة فجرا.

كلمة أخيرة قبل الرحيل

أنا متأكد تمامًا يا أحبتي أنكم مثلي.. مثلي تمامًا، خائفون، مرتعبون، مرتجفون، منزوون في إحدى الغرف المظلمة، لديكم هوس عميق من المرض والوهن والكبر، خوف من الموت، خوف من المجهول، خوف من نهاية مرعبة كوجهٍ في مقبرة، وهوس من مرضٍ خطير سيقعدكم ذات يوم.. أعرف تمامًا يا أحبتي أنكم مثلي، متناقضون جدًّا، وغرباء جدًّا، قد تصلون من البشاعة في الليل إلى أكل لحوم الأطفال وفي النهار لفرط طيبتكم قد تذرفون الدمع لرؤية (فزاعة) في حقل.. إنكم مثلي بلا هدف أو أمنية أو مستقبل أو حلم ولكن ابقوا هكذا فأنبل الأهداف هو اللاهدف وأجمل القادم هو اليأس منه، وأصدق الأحلام هي التي لا تتحقق أبدًا، أما الأمنيات فهي سخيفة كالأظافر، وكاذبة كالسماء قبل المطر، اجعلوها واقعًا، اخنقوها من العنق كي تلفظ الحقيقة من فمها، فمثلًا عندما ترون جثة شهيد تمشي في تابوت؛ قولوا:

- ما أسعده حقق أمنيته قبل أن يموت!!

لا تجعلوا الكره يتوغل لقلوبكم وعقولكم وعيونكم وأرواحكم كالجداول، فالكره كالكلب إن لم يجد ما يسد جوعه فإنه سيأكل صغاره، ولا تحترموا الحياة، اركلوها على المؤخرة كالعاهرة، كلا أعتذر جدًّا فالعاهرات أكثر طهرًا، اضربوها على القفا كاللص، كلا اللصوص لا تسرق أعمارنا، اسحقوها كالحشرات، كلا الحشرات أكثر لطفًا، احتقروها فقط.

احتقروها كما يحتقر الفقير رؤساء الدول، والحب فقط الحب هو الخلاص، هو الشمعة الأخيرة التي تمسك الرياح من شعرها، هو الغيمة الوحيدة التي يرتديها الحقل، هو الشمس التي لا ترتعب من الليل فتختبئ في الغروب، هو الطريق الذي رسمه الله لنا بالنور والجمال والأمل والتسامح، فأنا مثلًا قبل أن أحب كنت غولًا بمخالب كبيرة وأنيابٍ طويلة، أسكن الكهوف ولا أرتدي الملابس، ألتهم الضفادع وأشرب الماء من المستنقعات. وعندما أحببت امرأة فإنها أخرجتني من المياه الآسنة، غسلت شعري، قلمت أظافري، مسحت وجهي من الغبار وقبلت جبيني، ألبستني من الأزهار ثوبًا، صنعت لي وشمًا في صدري ثم أجلستني في حجرها وعملت لي ضفيرة طويلة فأصبحت شاعرًا، نصيحتي الأخيرة لكم قبل أن أخرس؛ مزقوا هذا الكتاب فورًا واخرجوا من البيت....

أدهم عادل

الفهرس

ألوان 9
الغول 17
رجل السماء 21
شجرة التين 29
لعنة الأطفال 31
فناء 33
مرآة 37
مدينة بلا بشر 41
الخالدون 45
أرق 51
أقنعة 55
احتضار 59
وجه في جدار 63
صمت 69
دهشة 73
حلم 77
(A+) 83
رجل يمشي برأسين 87
مجزرة مباركة 93
قبور 97
قمر بلا فم 99
كابوس 101
أم على مسمار الحائط 103
جارتي العجوز 105
كلمة أخيرة قبل الرحيل 107

ألوان

الحب هو الخلاص, هو الشمعة الأخيرة التي تمسك الرياح من شعرها, هو الغيمة الوحيدة التي يرتديها الحقل, هو الشمس التي لا ترتعب من الليل فتختبئ في الغروب, هو الطريق الذي رسمه الله لنا بالنور والجمال والأمل والتسامح، فأنا مثلًا قبل أن أحب كنت غولًا بمخالب كبيرة وأنيابٍ طويلة، أسكن الكهوف ولا أرتدي الملابس, ألتهم الضفادع وأشرب الماء من المستنقعات. وعندما أحببت امرأة فإنها أخرجتني من المياه الآسنة, غسلت شعري, قلمت أظافري, مسحت وجهي من الغبار وقبلت جبيني, ألبستني من الأزهار ثوبًا, صنعت لي وشمًا في صدري ثم أجلستني في حجرها وعملت لي ضفيرة طويلة فأصبحت شاعرًا, نصيحتي الأخيرة لكم قبل أن أخرس : مزقوا هذا الكتاب فورًا واخرجوا من البيت....

ISBN 978-9-9226081-4-3

9 789922 608143

SUMER
Printing, Publishing & Distribution
LUXEMBOURG - 2-c Crauthemerstroos - L-3334 HELLANGE
+352 671531017

سطور للنشر و التوزيع
دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد ـ شارع المتنبي ـ مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07700492576 - 07711002790
e.mail: bal_alame@yahoo.com